مركز الحضارة للدراسات والبحوث
٢٠٢٦

في الحالة الحضارية للعالم الإسلامي

خلال الربع الأول من القرن الحادي والعشرين

في الحالة الحضارية للعالم الإسلامي

خلال الربع الأول من القرن الحادي والعشرين

فهرسة أثناء النشر

مجموعة من المؤلفين

في الحالة الحضارية للعالم الإسلامي خلال الربع الأول من القرن الحادي والعشرين/ مجموعة من المؤلفين؛ تحرير: نادية محمود مصطفى.- ط. ١.- القاهرة: مركز الحضارة للدراسات والبحوث، ٢٠٢٦.- ٣٧٢ ص. ٢٩,٧ سم .

١. العالم الإسلامي - تاريخ معاصر. ٢. الحضارة الإسلامية.

أ. العنوان.

٩٥٣ / ن ا. ف.

رقم الإيداع: ٢٠٢٦/١٤٥٠٣

الترقيم الدولي: 978-633-8382-62-9 :ISBN

مركز الحضارة للدراسات والبحوث
١٠ ش د. حندوسة - جاردن سيتي
القاهرة - جمهورية مصر العربية
www.hadaracenter.com
E-mail: info@hadaracenter.com

- جميع الحقوق محفوظة لمركز الحضارة للدراسات والبحوث.

- ولا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة، سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلَّا بموافقة الناشر على هذا كتابة ومقدَّمًا.

الطبعة الأولى
١٤٤٨ هـ/ ٢٠٢٦م

مركز الحضارة للدراسات والبحوث
Civilization Center for Studies and Researches

أمتي في العالم

كتاب غير دوري يهتم بقضايا العالم الإسلامي

في الحالة الحضارية للعالم الإسلامي

خلال الربع الأول من القرن الحادي والعشرين

أمتي في العالم

في الحالة الحضارية للعالم الإسلامي

خلال الربع الأول من القرن الحادي والعشرين

إشراف وتحرير

أ. د. نادية محمود مصطفى

مدير التحرير

د. مدحت ماهر

مساعد التحرير

سمية عبد المحسن

المشاركون

آيـــــة محمـــــود عنـــــان
أحمـــــــد شـــــــوقي
أمنيـــــــة عمـــــــر
حـــــازم علـــــي مـــــاهر
شـريف عبـد الـرحمن سـيف النصـر
عبـــــد الـــــرحمن عـــــادل
عبـــــد الفتـــــاح ماضـــــي
عبـــــده إبـــــراهيم
محمـــــد الصـــــادق
محمـــــد علـــــي إســـــماعيل
مـــــدحت مـــــاهر الليثـــــي
مـــــروة يوســـــف
ناديـــــة محمـــــود مصـــــطفى

المحتويات

المقدمة ٩

د. مدحت ماهر الليثي

أمتي في العالم.. تفاعل الأبعاد الثقافية والسياسية عبر نصف قرن ١٥

د. نادية محمود مصطفى

أولا- في الحالة الفكرية والمعرفية ٣٩

الحالة التديُّنية في مجتمعاتٍ مسلمة معاصرة: نظرة اجتماعية ثقافية ٤١

محمد علي إسماعيل - محمد الصادق

في إنتاج العلوم الاجتماعية في العالم الإسلامي: خبرات تجديد من منظورٍ إسلامي ٨٣

عبد الرحمن عادل

الصهيونية في الرؤى المعاصرة للأمة: التأسيس الفكري لاتفاقات أبراهام [تطبيع الهيمنة وتطويع الوعي] ١١٧

د. عبد الفتاح ماضي

ثانيًا- قضايا وتفاعلات ١٤١

التعددية والاختلاف والحوار الإسلامي: مفارقة التفتت ومقاومة التفتيت ١٤٣

عبده إبراهيم

توجهات التوظيف الاستراتيجي لتقنيات الذكاء الاصطناعي في الأمة: بين التحرر الحضاري والهندسة الاجتماعية ١٦٩

د. شريف عبد الرحمن سيف النصر

الإنتاج السينمائي في الأمة: بين الرسائل الإسلامية والرسائل المضادة ١٩٣

أمنية عمر

الاقتصاد السياسي للجاليات المسلمة في أوروبا: من تجفيف المنابع إلى تجديدها ٢٢٣

أحمد شوقي

ثالثًا- مؤسسات وقوى مجتمعية ٢٥٧

الأسرة في العالم الإسلامي: بين السيولة ومقاومتها ٢٥٩

مروة يوسف

في مؤسسة الوقف في الأمة في العقدين الأخيرين: تحولات وتحديات ومقترحات ٢٩٧

د. حازم علي ماهر

ثقافة الأمة والإعلام الجديد: تحديات - فرص - جهود ٣٣٣

د. آية محمود عنان

المقدمة

د. مدحت ماهر الليثي *

ربع قرن مضى منذ بداية القرن الحادي والعشرين الميلادي (٢٠٠٠-٢٠٢٥)، احتدم فيه التدافع الحضاري داخل أقطار الأمة الإسلامية وعبر حدود تلك الأقطار، وفيما بين الأمة والعالم خارجها. فقد مرت الأمة بسلسلة متراكمة من تحولات كلية وشبكة معقدة من تغيرات جزئية في المجالات الحياتية والحضارية العديدة، وعلى المستويات المختلفة، واستمرت التدافعات الثقافية والفكرية والاجتماعية؛ حول: الهوية، والمرجعية، والقيم والأخلاق، والتشريعات، والمفاهيم، والأسرة... وغيرها؛ ضمن سياقات استراتيجية -أمنية وسياسية واقتصادية- شديدة الحدة والتأزم والتأزيم.

* مدير مركز الحضارة للدراسات والبحوث بالقاهرة.

لقد افتُتِح القرن الجديد بانتفاضة فلسطينية ثانية (انتفاضة الأقصى) سبتمبر ٢٠٠٠؛ ردا على استمرار التبجح العدواني الصهيوني غير المنقطع، في ذات عام الأمم المتحدة للحوار بين الحضارات، ثم لم تلبث أن عصفت بالأمة والعالم تداعيات أحداث اليوم الأمريكي ٢٠٠١/٩/١١ وما أعقبه من حملة أمريكية غربية على العالم الإسلامي باسم "الحرب على الإرهاب" (العدد الخامس من أمتي في العالم)، حملة تخللتها مؤازرة للمشروعات العلمانية المضادة لهوية الأمة ومرجعيتها، وتوظيفات للاستبداد السياسي ضد الشعوب الإسلامية، وخلخلة للتوازنات لتوسعة المجال أمام مشروعات إقليمية متنافسة من بعض قوى الأمة وأركانها؛ كالمشروع الإيراني، والمشروع التركي، ولقوى أخرى أجنبية عن الأمة؛ كالمشروع الأمريكي الهيمني نفسه، ثم الروسي الأقل حظًّا، فالصيني المتسرِّب عبر الاقتصاد، فالهندي محل الترقُّب، وصولًا إلى المشروع الصهيوني الأشر والأخطر الذي تحرَّك باتجاه مزيد من تطويع الوعي العربي وتطبيع الهيمنة على المنطقة العربية وجوارها الحضاري.

وبمراجعة أدبيات التسعينيات ما بعد الحرب الباردة، وكتابات العقد الأول من القرن الحالي (مثل كتابات الصهاينة أنفسهم كشيمون بيريز وبنيامين نتيناهو، وكتابات الأتراك والإيرانيين والروس وغيرهم...)، نجد أن هذه المشاريع كانت تجري عمليا على قدمٍ وساق، وقد استغل معظمها الانكشاف العربي، وفقدان التوازن في السياسة الأمريكية العالمية والإقليمية، لملء فراغات القوة والنفوذ والمصالح (راجع الأعداد السابقة من أمتي في العالم من الخامس إلى السابع عشر، وبالأخص العدد الثالث عشر).

بدأ العقد الثاني من هذا القرن بثورات الربيع العربي ٢٠١١ التي لم تلبث أن دُحرت، لتدخل المنطقة العربية في مزيد من الحروب الأهلية والصراعات البينية والفوضى الإقليمية التي أفسحت مجالاً آخر لنمو تلك المحاور الاستراتيجية الإقليمية والدولية، بينما يتعرض كيان الأمة الجمعي وأجزاؤها الداخلية لعمليات تفكيك وتفتيت وهجمات كثيرة، عرَّضت الكثيرَ من قواها ومكاسبها السابقة للإهدار والإضعاف؛ وفي القلب من ذلك الجوانب المعنوية: الثقافية والفكرية والروحية، التي تشكل قلب الأمة وعقلها.

اجتاحت بقية ربع القرن هذا جائحة كوفيد ١٩ (كورونا) لتزيد من تأزم أزمات الأمة والعالم الاقتصادية والاجتماعية، بينما يستمر التآمر العلني على آمال الأمة في الحرية والوحدة والنهوض، وخاصة على ما تبقى من حقوق القضية الفلسطينية، وذلك بصورة مطردة آلت إلى اندلاع طوفان الأقصى في السابع من أكتوبر ٢٠٢٣، الذي أشبه زلزال ثورات ٢٠١١، وكشفت الهجمة الإسرائيلية المضادة عليه كيف تضافر العدوان الصهيوني مع الحالة النظمية العربية بصورة غير مسبوقة، ولها ما بعدها. وكل ذلك ثمار مراحل أسبق، وقد تناولتها بجدارة سلسلة أمتي في العالم منذ بداياتها[1].

قد تبين من هذه المسيرة ومن كل وجه أن الأبعاد الثقافية: الدينية والقيمية والمعرفية، والأبعاد الاجتماعية والإنسانية لتلك التحولات والتغيرات، لا تقل خطورة عن الأبعاد الاستراتيجية والأمنية والسياسية والاقتصادية، خاصة أن العنوان الأبرز الذي وُسِم به معظم المسلمين -إن لم يكن كلهم- بل الإسلام نفسه، خلال ربع القرن هذا؛ هو (الإرهاب)؛ بكل ما يحمله ذلك المفهوم من دلالات الشر والعدوان، والأذى والإجرام، والخطر والتهديد للآخرين؛ ومن ثم ما يترتب عليه من استباحة قوى

الطغيان والهيمنة للأرض والعرض والدم والثروات في بلدان المسلمين.

أفرز ذلك كله -وبما قبله- مدخلات متعددة تتضافر لإهدار إمكانيات شعوب الأمة الإسلامية وتقييد حركتها وإضعاف فاعليتها؛ ومن أهم تلك المدخلات: غياب القيادة المنتمية الواعية القادرة على إلهام الشعوب وجمع كلمتها، وليس المقصود هنا مجرد القيادات الشخصية؛ فهي على أهميتها، إلا أن اتساع المجتمعات وتعقد التحديات أضحى يستلزم قيادة من كيانات مؤسسية متكاملة التخصصات، يقوم عليها راعون واعون بهوية هذه الأمة، وما يجب أن تكون عليه مكانتها في العالم اتساقًا مع دورها ورسالتها الحضارية الأصيلة. ويتصل بذلك مستوى آخر يتعلق بما يمكن وصفه بالقيادة المفاهيمية للشعوب؛ فلا شك أن المجتمعات، التي يعي أفرادها ذواتهم بوصفهم "مستخلفين في الأرض"، هي أقدر على الفاعلية والمداومة في مواجهة التحديات، بل السعي نحو التجديد بما يحقق مصالح الأمة والعالم، فهذه القيادة الذاتية الواعية أطول أمدًا وأعمق تجذُّرًا.

ولعل ذلك ما أدركته القوى المضادة للأمة في داخلها ومن خارجها؛ فتحرص دوما على إفساد الوعي المجتمعي بشكل منتظم ومتصاعد، عبر شبكات كثيرة من مؤسسات إعلامية وثقافية واجتماعية وبحثية وبعضها يختص بالشئون الدينية، تسعى بدأب لترويج مفاهيم مناقضة لهوية الأمة وتصورات وأنماط مخالفة لمرجعيتها وقيمها؛ حتى إن بعضها لتنكر وجود الأمة ذاتها، وأكثرها تشوه وتشوش قضاياها الكبرى. ومن وراء تلك الشبكات تقف شبكات من كيانات اقتصادية وسياسية واستراتيجية واستخباراتية؛ باتت تعلن مخططاتها ضد الإسلام والمسلمين باسم مكافحة التطرف والإرهاب والدفاع عن الحضارة والتقدم، وربما أصرح من ذلك باسم حروب صليبية جديدة، كما يعلنها وزير الدفاع الأمريكي الحالي بيت هيغسيث.

تطال تلك المخططات المؤسسات الأكاديمية والتعليمية؛ فهي إما أن تنساق في هذا التيار، وإما أن يتم تحييدها وصولا إلى إفراغها من كافة إمكانياتها ومهامها الحقيقية. كما يجري تحويل الكثير من البُنى المجتمعية الأصيلة -مثل الأسرة والقبيلة والوقف والطرق التزكوية الملتزمة وغيرها- إما إلى تكوينات داعمة للسلطوية، أو أدوات لمزيد من شرذمة وتفكيك المجتمعات... هذا التفكيك للوعي وللقوة المجتمعية نجد صداه بوضوح على ساحات وسائل التواصل الاجتماعي التي تعكس الكثير من هذه الحال المتردية.

لذا، فإذا كان اتهام مجتمعات الأمة الإسلامية بالإرهاب كان محركًا في لحظةٍ ما صوب الاهتمام بدراسة الأبعاد الحضارية والثقافية المرتبطة بتلك المجتمعات، فإن ثمة دافعًا حضاريًّا داخليًّا يتمثل في "غلبة الوهن" على تلك المجتمعات ذاتها؛ وهو وهن تتجاوز خطورته الضعف الاقتصادي والسياسي والعسكري، فهو "وهن القلب والعقل"،وهن الوعي والحس؛ ومن ثم وهن الإرادة؛ الأمر الذي يتطلب القيام على تأصيل وتشغيل وتفعيل علم اجتماع سياسي واقتصادي وثقافي جامع لفحص أحوال الأمة في نهاية الربع الأول من القرن الحادي والعشرين.

ورغم امتداد مساعي إضعاف الأمة على الأصعدة المختلفة من داخلها ومن خارجها، فإن جهود المقاومة والممانعة، ومساعي الإصلاح والنهوض، ودعوات إيقاظ الوعي لدى الأجيال الجديدة، لا تزال حية وحاضرة وجارية، حتى وإن لم تكن هذه الجهود والمساعي على قدر مخططات ومجهودات الإيهان

والإفساد قوة وإمكانية وقدرة على التأثير والتغيير، إلا أنها ما زالت تحث السعي بأدوات مختلفة وفي مجالات عدة.

هذا، ويأتي هذا الكتاب من "أمتي في العالم" استكمالا لأعمال بحثية سابقة(*)، حاولت تبيُّن مكامن القوة والضعف في أعصاب الأمة؛ لتوجيه نظر الساعين للإصلاح في المجتمعات إلى مواضع الاستكمال أو العلاج أو الاستبدال.. أو غير ذلك في مجالات مختلفة.

وإن كانت أعداد سابقة من "أمتي في العالم" أو بعض الإصدارات الأخرى قد ركزت على أبرز العوامل التي أثرت في الأمة الإسلامية على مستويات مختلفة داخليًا وخارجيًا، فإن هذا الكتاب يحاول أن يسلط ضوءًا أكبر على الآثار المترتبة على تلك العوامل داخل مجتمعات الأمة عبر ربع القرن الأخير، مع محاولة رسم صورة مجتمعية كلية لقضايا الأمة الثقافية والاجتماعية بامتدادها الجغرافي وتنوعها الثقافي. وإذا كان من الصعب رسم خريطة تفصيلية لكامل قضايا الأمة في المجالات والمساحات المختلفة، فإننا نحاول تلمس الملامح العامة لها بدراسة نماذج متنوعة جغرافيا وثقافيا؛ نحاول من خلالها بيان الإشكاليات المتعلقة بكل موضوع وكيفية مواجهتها؛ بالتركيز على الجانب المجتمعي من جهة، وتفاعله مع الجانب السياسي (السلطوي) من جهة أخرى.

مما تقدم، يتحدد سؤال هذا الكتاب في كيف نلتقط صورة **الحالة الثقافية والمجتمعية لدواخل العالم الإسلامي، وتطوراتها في اتجاهاتها التي نشهدها عبر ربع القرن الأخير، اتصالا بالحالة السياسية خاصة، والحالة الحضارية عامة، ومع التحولات الإقليمية والعالمية المحيطة والمتخللة للأمة؟**

ويتفرع من هذا السؤال الرئيسي عدد من الأسئلة الفرعية المشتركة بين الموضوعات؛ من مثل:

- ما مظاهر التحول والتطور في هذه الحالة الثقافية والمجتمعية؟
- ما العوامل والأفعال والتفاعلات، الداخلية والخارجية، التي أحدثت تلك التطورات؟
- مَن أهم الفاعلين المؤثرين في المجتمعات والشعوب الإسلامية، داخليا وخارجيا؟
- ما أهم الأدوات المباشرة وغير المباشرة التي يستخدمها هؤلاء الفاعلون للتأثير في المجتمعات ثقافيا واجتماعيا ودينيا..؟
- هل من الممكن استخدام وتوظيف الأدوات ذاتها، أو غيرها، لاستعادة وعي الشعوب وتأثيرها الإيجابي في نهوض الأمة؟ وهل من أمثلة على ذلك؟
- ما المآلات الثقافية والاجتماعية المتوقَّعة لحال الأمة؟

يحاول هذا الكتاب الإجابة عن هذه الأسئلة عبر فحص نماذج وحالات من ربوع الأمة داخليا وبينيا وعبر الحدود، من خلال التركيز على الأبعاد الاجتماعية والثقافية والدينية المكوِّنة والمشكِّلة لوعي الأمة، والمعبرة عن موقعها الحضاري بين الأمم الأخرى: تأثيرًا وتأثرًا.. واتصالًا بالأبعاد المختلفة السياسية والاقتصادية. هذا، فضلا عن محاولة تبين العوامل الأكثر تأثيرا في وعي الأمة وحالها، إيجابا أو سلبا؛ مع محاولة تبين الأوزان النسبية لتلك العوامل المختلفة، والأدوات الأكثر تأثيرا ما بين أدوات تقليدية أو قديمة ممتدة، وأخرى مستحدثة، وما بين أدوات رسمية وأخرى غير رسمية؛ ومن ثم إيجاد آليات للتعامل مع تحديات مجتمعات الأمة

وفق ما تقتضيه ظروف كل بقعة.

بناء على ما تقدم، يستهدف هذا الكتاب من "أمتي في العالم" الإطلال على حال الأمة الإسلامية في ربع القرن الأخير (٢٠٠٠-٢٠٢٥)، على مستوى المجتمعات بالأساس، ثم ما يتصل بها من حال النظم؛ أي التعرف على وجوه من **أحوالها: التدينية، والأسرية، والفكرية السياسية، والبحثية والتعليمية، والحوارية، والفنية، والثقافية والإعلامية، والاقتصادية العابرة للحدود، والوقفية، وغيرها.** فالمجتمعات هي أساس تكوين الأمة وكياناتها الجمعية المختلفة. لذا نتساءل واقعيا ونحاول أن نجيب بحثيا: هل ما زالت مجتمعات الأمة تمتلك مقومات استعادة الدور الحضاري لها في إحداث النهضة الذي تنشده وتتشوف إليه منذ ما يقرب من قرن؟ ولماذا تمتلك في مساحات وتفتقد في أخرى؟ وكيف يمكنها أن تستعيد دورها وقوتها؟

الهوامش:

(١) راجع محاضرة د.نادية مصطفى عن التحولات النظمية العربية على الموقع الإلكتروني لمركز الحضارة، ١١ أكتوبر ٢٠٢٣، متاح عبر الرابط التالي: https://bit.ly/4doiaHE

* انظر على سبيل المثال:

- د. نادية محمود مصطفى، د. سيف الدين عبد الفتاح (تحرير)، **الأمة في قرن**، عدد خاص من حولية أمتي في العالم، القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية، والشروق الدولية، ٢٠٠٢ (**ستة مجلدات**).
- مركز الحضارة للدراسات السياسية، أمتي في العالم: الحالة الثقافية للعالم الإسلامي، (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١١).
- د. نادية محمود مصطفى، د. منى أبو الفضل (تحرير)، **التأصيل النظري للدراسات الحضارية**، (دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٨).

دراسة افتتاحية

أمتي في العالم..
تفاعل الأبعاد الثقافية والسياسية عبر نصف قرن

أ. د. نادية محمود مصطفى *

مقدمة:

ظلَّت افتتاحية الحولية طوال ستة عشر عددًا تضيء بكلمات الحكيم والمؤرخ والقانوني المستشار طارق البشري حتى رحل عنا في فبراير ٢٠٢١. وصدر العدد السابع عشر: قراءة في فكر البشري الحضاري، بافتتاحية سطرتُها من قبس أفكار وكلمات افتتاحياته السابقة، وكذلك فإن العدد الثامن عشر "الأمة بعد مائة عام من إسقاط الخلافة" تصدرته افتتاحية أعدَّتها أ. سمية عبد المحسن من واقع إسهامه الفكري الممتد عن "الخلافة والحكم في الإسلام وفي التاريخ الإسلامي".

* أستاذ العلاقات الدولية المتفرغ ورئيس قسم العلوم السياسية (سابقًا) بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة، ورئيس مركز الحضارة للدراسات والبحوث بالقاهرة.

رحل البشري صاحب فكرة الحولية والمُنظِّر لأهدافها ، كما رحل من قبله صاحب مفهوم "أمتي في العالم" أستاذنا د. حامد ربيع، كما رحل قبلهما المفكر الجزائري مالك بن نبي الذي أخذنا عنه "المنهاجية الثلاثية" الناظمة لأبواب الحولية: عالم الأفكار، وعالم المؤسسات، وعالم الأحداث؛ ننظِم وفقًا لها مضمون أعداد الحولية وهيكلها منذ العدد الأول وحتى التاسع عشر الذي أواجه مهمَّة كتابة افتتاحيته لأول مرة.

كذلك رحلت أستاذتُنا د. منى أبو الفضل صاحبة مفهوم الأمة القطب والمُنظِّرة له، والداعية إلى تفعيله بوصفه مستوى للتحليل في الدراسات السياسية، التي كانت تصفها وفق رؤيتها المعرفية بالدراسات الحضارية. **فالسياسة -وفق المنظور "الحضاري"** الذي أَسَّسَتْ له معرفيًا وفكريًّا د. منى أبو الفضل- هي "سياسة حضارية" في قلبها "الإنسان والقيم".

كما رحل أيضًا العلَّامتان د. عبد الحميد أبو سليمان ود. طه العلواني اللذان دشَّنا منذ منتصف السبعينيات الدعوة إلى علاج أمراض الأمة وقعودها بمواجهة أزمتها الفكرية متعددة المستويات؛ فأسسَّا -وزملاؤهما- صرحًا علميًّا للقيام على الأمر؛ هو المعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن.

كما رحل العلامتان د. محمد عمارة ود. عبد الوهاب المسيري اللذان حملا هموم الأمة المعرفية والثقافية والفكرية والاجتماعية على أكتافهما، كلٌّ بمدخله وبمنهاجيته النقدية والبنائية الحضارية، وقدما أطروحتين نقديتين وبنائيتين في الوسطية الإسلامية والإنسانية الإيمانية.

رحل هؤلاء الرواد من أعلام الفكر والعلم الإسلامي المعاصر، ومتع الله أعلامًا آخرين بالصحة، جميعهم ذوو امتدادات تراثية وإطلالات على فقه الواقع، وتدبرات في مسار "التجدد والنهوض الحضاري للأمة"؛ بمجتمعاتها وشعوبها قبل نظمها ومؤسساتها، وبأفكارها ورؤاها قبل عناصر قوتها المادية، وبعقيدتها وروحها وهويتها قبل عوامل السياسة والاقتصاد والأمن العسكري؛ فكان مبتدأهم ومنتهاهم جميعًا: أن "العقيدة والإنسان"، هما النواة الصلبة في قلب "المجتمعات"، وفي قلب كل ما يسمَّى "الأبعاد الثقافية الاجتماعية" إلى جانب الظواهر السياسية والاقتصادية والعسكرية، الداخلية منها والخارجية، في دول العالم وأممه، وفي قلبها الأمةُ الإسلامية. ومن هنا كان منظورٌ حضاريٌّ للظواهر السياسية هو منظور كلي وشامل، قيمي واقعي.

هؤلاء الرواد وغيرهم هم أعلام مدرستنا الحضارية، الذين تشكَّلت في سياقهم المدرسة المصرية للعلوم السياسية من منظور حضاري؛ وهي المدرسة التي أشارك فيها منذ أربعة عقود، ضمن جيل ثانٍ مع زمرة من الشجعان، جيل ثانٍ واجه -ويواجه باستمرار- تحدي الاستمرار والتراكم والتجدد من ناحية، وتحدي التواصل والتفاعل والإعداد لـ"جيل ثالث ورابع"... إلخ.

من هذه الخبرة وإدراكي لها أواجه مهمَّة إعداد الافتتاحية لأول مرة بعد رحيل الحكيم البشري، وهي مهمة صعبة إنسانيًّا وعلميًّا، ولكنها واجبة ولازمة وضرورية؛ استكمالا للمسيرة والمسؤولية من ناحية، وإبرازًا لمنحى شديد الأهمية اليوم من ناحية أخرى.

يجسِّد هذا المنحى موضوع هذا العدد من الحولية: "الحالة الحضارية للعالم الإسلامي في الربع الأول من القرن الحادي والعشرين". فلقد أضحت هذه الحالة الحضارية، وفي قلبها الديني والثقافي، تدقُّ ناقوس الخطر وتفرض التصدي للمشهد

الجاري منها، الذي يهدد عناصر الوجود المادي للأوطان، ويضرب ما تبقى من روابط "الوحدة"، ويعيق جهود النهوض والاستقلال.

إن هذا الموضوع يحمل ثلاث دوائر متداخلة ومتحاضنة: دائرة المكان، ودائرة الحالة، ودائرة الزمان. ولقد أدلى مركز الحضارة عبر أعداد "أمتي في العالم" المتتالية بدلوه دائمًا في هذه المساحة الدينية الثقافية الحضارية للأمة، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة؛ وهي مساحة ذات ذاكرة تاريخية في مسار التراكم الفكري والمعرفي والحركي الذي قدمه المركز إجمالا عبر ثلاثين عامًا.

(١)

نبدأ بالمكان، أو مناط "الحالة الحضارية". إنه العالم الإسلامي، المفهوم الجيوسياسي الذي يلخِّص الحال المعاصر للأمة الإسلامية منذ سقوط آخر خلافة وانقسام الفضاء الحضاري الإسلامي الممتد في ظل الاستعمار وما بعده وحتى الآن إلى "دول قومية"؛ وهي دول "إسلامية" أيضًا؛ بحكم الحضارة والتاريخ والشعوب والشريعة الواحدة التي تحكمها ولو عبر الحدود. ولكن تظلُّ تعريفات "الدولة الإسلامية" متعدِّدة بحكم تعقُّد وتعدُّد الأنماط في الواقع؛ هل من حيث أغلبية السكان، أم الدستور، أم طبيعة النظام السياسي أم..؟

بعبارة أخرى، يحمل مفهوم الدولة الإسلامية ومفهوم الدولة القومية حمولات معرفية وأيديولوجية وسياسية متعدِّدة تزداد تعقُّدًا وتركيبًا من ناحية، كما تفرض تلك الحمولات من ناحية أخرى تداخُلًا آخر بين مفهومي العالم الإسلامي والأمة الإسلامية؛ لأن العالم الإسلامي يتضمَّن -إلى جانب الدول- جماعات في دول "غير إسلامية"، كما أن الأمة تتجاوز الدول ولا تقتصر عليها ككيانات قانونية سياسية.

وبدون دخول في تفاصيل قد تخرج بنا عن نطاق المطلوب، فإنني أستحضر مفهوم "الأمة" بصفة خاصة، باعتبارها -مقارنة بالعالم الإسلامي- الأكثر ملاءمة معرفيًّا للاقتراب من "الحالة الحضارية". ولكن يظلُّ لمفهوم العالم الإسلامي أيضًا دلالاته الواقعية بالنسبة للوضع القائم لهذه الحالة.

«الأمة الإسلامية» -وفق قراءتي لأستاذتنا منى أبو الفضل- هي ذلك الكيان الجماعي المميز الذي يمثل حصيلة العقيدة والدعوة، والذي تلتقي عناصره حول خصائص مشتركة ضاربة الجذور، باسطة الفروع، على مدى الأبعاد الذاتية والموضوعية، المعنوية والمادية، لجماعة هي عصب العالم الإسلامي. بعبارة أخرى، فإن مصير الجماعة / الأمة لا يمكن فصله عن مسار العقيدة / الدعوة. فهي الأمة -دون أمم أخرى- الباقية بقاء هذه العقيدة.

الأمة -بوصفها وحدة تحليل- لا تعني بأي حالٍ الحديث عن معنى الأمة بوصفها فكرة مثالية، ولا تعني تخطي الواقع أو القفز عليه؛ بل هي تعبير عن كيفية افتقاد الواقع معنى الأمة بهذا الاعتبار، وكيف يمكن السعي إلى الأمة هدفًا ومقصدًا. إن هذا المعنى قد يشير إلى الأمة الجامعة في إطار الإسلام، والجماعة الوطنية بوصفها إشارة لمعنى الدول القومية التي استقرَّت حدودُها وفق متغيِّرات أدَّت إلى تقسيم أمة الإسلام. هذه إذن جماعات وسيطة، ثم هناك تكوينات جمعية تشكِّل وحدات لشبكة علاقات اجتماعية وسياسية. وفي كل الأحول يشكِّل معنى "**الأمة**" نسقًا جامعًا بين هذه الوحدات، يقرن ذلك بإمكان توظيف هذه التكوينات المتنوِّعة في خدمة المصالح والأهداف الكلية التي تصبُّ في قوة

الكيانات ضمن الكيان الأكبر وفاعليَّته[1].**وللأمة لدى د.حامد ربيع، كما نقل عنه إلينا د.سيف الدين عبد الفتاح، معنى خاص ودلالة بالنسبة لعالم السياسة، فقد** "استدعى (حامد ربيع) الأمة بضمير الملكية "أمتي والعالم"، وهو يبحث عن وظيفة العالِمِ في أمته، يتحيز لقضاياها ويعلن عن انتمائه لها مفتخرًا، يبحث عن الحي في عالم أفكار وحياة الأمة، ويبحث عن ضرورات الإحياء والتجديد ومساراته... أكَّد وهو يعلمنا معنى الأمة في ضمائرنا، أن هذه الأمة لن تموت أبدًا، بل هي تحمل عناصر تجدُّدها الذاتي، بل إنها قد تتلمَّس معادلات "قوة الضعف" و"غطرسة القوة"... واستوعب كما لم يستوعب أحد معادلة الخروج مما نحن فيه، واصلًا بين هموم أمَّته وطرائق مواجهتها، وكيفية ترجمة الإرادة إلى وعي إدراكي وسعي عملي من أجل التغيير لكلِّ ما يشكِّل عناصر سلبية تضعف الأمة، والتمكين لكلِّ عناصر الطاقة الإيجابية"[2].**ومن ثم، فإن الأمة وفق مقولات المنظور الحضاري:**

- لا تُسقِط الدول من حسابها ولكن لا تقتصر عليها، فالدول في قلب الأمة لا فوقها أو خارجها.
- لا تقتصر على العقدي الاجتماعي، ولكن تمتد أيضًا لتجدل بين الحضاري والسياسي والاستراتيجي.
- سعة خريطة الفضاء الحضاري الإسلامي، الشامل لأقوام متنوِّعة ومجالات حياة أكثر تنوُّعًا.
- لا ينفصل فيها الداخلي (في الأوطان) عن البيني (ما بين الدول والجماعات)، ولا الخارجي (أمم أخرى بدولها وجماعاتها...)، وتتعدَّد أنماط العلاقات بين هذا المثلَّث من مرحلة إلى أخرى من مراحل تطوُّر وضع الأمة في العالم.

والأمة في العالم تعكس خصائص حضارية جامعة للتنوع:

- هي ذات ذاكرة تاريخية تحرَّكت عبرها: من حال الفاعلية كقوة مؤثرة في التوازن والتغيير العالمي تردع الظالم وتنصر المظلوم، إلى حال الحضور كقوة محافظة على الذات والاستقلال، إلى حال عدم الفاعلية كقوة مشهود عليها، إلى حال "الوهن" كقوة متكالَب عليها. وكان لكل مرحلة من هذا التطور حالة حضارية لعبتْ فيها إشكالية العلاقة بين الديني الثقافي والسياسي دورًا أساسيًّا.
- وهي تغطِّي فضاءً حضاريًّا ممتدًّا تختلف وتتنوَّع ظروف دوله وشعوبه في أقاليم الأمة الجغرافية الحضارية: الآسيوية، والأفريقية، والأوروبية؛ إلا أنها جميعًا تحمل قواسم مشتركة حضارية، كما تجمع بينها مجموعة من الخصائص الواقعية الكبرى، وأخيرًا فهي تواجه نفس الأنماط من التحديات الداخلية والخارجية وإن اختلفت مسائلها وتفاصيلها عبر الزمان والمكان (تحدي الحريات وحقوق الإنسان - تحدي التخلف والرأسمالية المتوحِّشة - تحدي الاستبداد السياسي والديني - تحدي الأمن الخارجي).
- وإذا كان ملحوظًا في أدبيات التخلف والنهوض شيوع خطاب "التعميم على الأمة" ككل، ككيان واحد، كمستوى للتحليل مقرونًا بصفة الحضاري: فقه حضاري - مشروع حضاري - نهوض حضاري - تجدُّد حضاري... فإن لهذا الخطاب جدواه لأنه يكشف المشترك من الخصائص والتحديات ويتمسَّك بأصل ثابت لا اختلاف على ثباته وعدم تغيُّره (عقيدة جامعة)، ومن ثم فهو المستهدَف لأنه النواة الصلدة في ثقافة وهوية ووعي هذه الأمة.
- إن الخصوصيات الإقليمية لأوطان ومجتمعات أمَّتنا تمارس تأثيرها على طبيعة مسائل

قضايا التحديات والتهديدات وسبل مواجهتها على النحو الذي يدفع للاهتمام المقارن بالسياقات المختلفة طلبًا للتثاقف والتحاضن في الخبرات، ولو عن بعد. ورغم أن العولمة هزَّت الحدود مع الغرب فإنها لم تهزها بالقدر الكافي بين أوطان ومجتمعات الأمة، إلا في ما يتَّصل بنقل أخبار الصراعات الدموية، وتظل الإنجازات والإبداعات في الظل أو بعيدة عن وسائل الإعلام الجديدة العابرة، التي تظل ناقلة ومرسِلة من "الغرب أساسًا" طالما بقيت ملكية شبكاتها ووسائلها في يد زمرة رأسمالية غربية وصهيونية. ومهما تعدَّدت الصور المرسَلة من أرجاء الأمة، أو المقروء عنها، فلا بد ألا نكتفي بظاهرها المادي ولكن يجب دائمًا البحث والتدبر فيما تنضح به أو تخفيه من أبعاد دينية-ثقافية تشرح وتفسر الحالة الحضارية المادية الظاهرة.

وإذا كان الربع الأخير من القرن العشرين قد شهد تحديات داخلية وخارجية متراكمة تحولت إلى تهديدات مباشرة مدعومة بقوة سلاح العدو وعدوانه عبر أرجاء الأمة، حاملا ذاكرة السوء، ذاكرة الاحتلال العسكري، وإذا كانت نفس المرحلة قد مرَّت بها ذكرى مائة عام على إسقاط الخلافة الإسلامية (ذلك القرن الذي شهد تراكم مظاهر الضعف والتجزئة والتبعية، أي كل مظاهر الانحدار الحضاري)، فإن ربع القرن هذا لم ينتهِ إلا وقد انفجرت بؤرة من بؤر المقاومة الحضارية التي لم تنقطع طوال تاريخ أمتنا سواء في مراحل القوة والشهود أو مراحل الضعف والمشهودية، فكان طوفان الأقصى وتداعياته الإقليمية والعالمية عبر عامين ناقوسًا يعلن أن هذه الأمة لم ولن تموت... لماذا وكيف بعد كل مؤشرات التراجع ثم الانحدار المادي للدول مقارنة بدول أخرى؟ وهنا تقفز بقوة الأبعاد القيمية لتقلب أنماط التفكير، إن هذا المشهد يختبر وجود الأمة معلِنًا أمرين:

من ناحية أولى: فإن شعوب هذه الأمة -أينما كانوا- حاضرة وفي قلبها غزة وفلسطين، ومن ناحية أخرى: هي حاضرة ومعها أحرار العالم جميعهم ضد ظَلَمة وفسدة هذا العالم الموالين للصهاينة، عربًا ومسلمين أو غيرهم.

(٢)

الحالة الحضارية للعالم الإسلامي أو للأمة -وفقًا لمنظور حضاري إسلامي- هي الحالة التي لا ينفصل فيها الديني الثقافي المجتمعي عن السياسي الاقتصادي العسكري، بقدر ما لا تنفصل فيها الأمة عن الدولة، ولا ينفصل فيها الداخلي والخارجي. وتقع المجتمعات في قلب الحالة الحضارية، ومن ثم تقع الأبعاد الدينية - الثقافية لهذه المجتمعات (كمحددات وعمليات ومُخرجَات) في قلب هذه الحالة، دون انفصال عن السياسي والاقتصادي والعسكري.

ما المقصود بالأبعاد الدينية الثقافية بصفة عامة ونمط تفاعلها مع الأبعاد المادية؟

البُعد الثقافي هو المتعلق بطرائق التفكير والتدبير وأنماط الإدراك والتعامل، وتجليات ذلك البعد داخل الأوطان وفي تفاعلاته وعلاقاته البينية والخارجية.

ومعلوم أن "الثقافة" مفهوم شامل يتَّسع للعديد من العناصر: الدين، والفكر، والخطابات والحوارات، والانتماءات والهويات والمرجعيات، وأصول التكوين السياسي والاجتماعي، وأسس بناء العلاقات بين البشر داخل الأوطان وعبر العالم، وما يتجلَّى فيه هذا من تشييدٍ لمؤسسات، ونشاطات فكرية وثقافية من ندوات ومؤتمرات وإصدارات

مقروءة ومسموعة ومرئية، وحركة الإعلام والاتصال المنفتحة على أقصاها، ودور المراكز الثقافية عبر الدول والأمم... إلخ.

"الثقافي" هو الشِّقُّ المعنوي والفكري المكمِّل للظواهر المادية الملموسة. وقد يقصر بعضنا مفهوم "الثقافي" على ما يتَّصل بنخب متميزة معرفيًّا وفكريًّا ومتمايزة عن سائر القواعد والجماهير، نخب تمثل عقل المجتمع ولسانه؛ سواء انتظمت في مؤسسات أو لم تنتظم، تقاطعت مع الدوائر الرسمية أو اتَّسمت بالاستقلال. على جانب آخر، يصرف بعضنا مفهوم "الثقافي" إلى بعض العناصر المذكورة؛ من أنماط عيش وسلوك، أو طرائق تفكير وتدبير، أو أساليب حياة، أو رؤية للعالم، أو هوية وانتماء حضاري، أو إطار مرجعي أو أيديولوجيات... إلخ.

"... إن تتبُّع مؤشِّرات الحالة الثقافية للأمة الإسلامية ينبغي أن يتوجَّه إلى اختبار أمرين متكاملين: **أولهما** طبيعة الصلة بين الثقافي وبين مجالات الحياة الأخرى من السياسي والاقتصادي والاجتماعي والعالمي والإنساني؛ هل ثمة اتِّساق بين حالة هذا "الثقافي" وبين خصائص الحالة العامة للأمة في عالم اليوم، أم إن ثمة انقطاعًا ومتغيِّرات وسيطة تعطِّل أو تشوِّه أو تحرف أثر الثقافي في السياسي والاجتماعي وغيرهما.. والعكس صحيح؟ **الأمر الثاني**- هو تقويم الحالة الثقافية نفسها ومدى توافقها أو تخالفها مع ثوابت الإطار المرجعي والحضاري للأمة. على أن يعتمد التقويم على رؤية وظيفية، تبحث عن مدى كفاءة الثقافة القائمة بعناصرها المتعدِّدة في مواجهة قضايا العصر، وتحديات الأمة الداخلية والخارجية، وصلاحية التطور الثقافي القائم لأن يحقق مقاصد الأمة العليا ويحفظ مصالحها الحيوية"[٣].

يقع الإنسان في قلب هذه الأبعاد بكل ما يتَّصل بالحالة الحضارية للأمة: اجتماعه البشري وسلوكه في مجالات حياته المختلفة: أحكامًا وقيمًا، عادات وتقاليد، هوية ووعيًا بذات وذاكرة تاريخية لوطن ودولة وأمة، وأخيرًا رؤية للذات وللعالم والعلاقات بينهما. يتم اكتسابها وتعلُّمها بسُبل متنوِّعة، ومن ثم يتم تشكيلها وتأثيرها عبر فاعلين ومؤسسات وأنظمة، ويتحدَّد من درجة ذاتيَّتها الحضارية مدى الاتساق والانسجام بين الرؤى وبين السياقات النهضوية، ومدى الاتساق والانسجام بين مكوِّنات المجتمع، والانفتاح والحوار والتعارف مع الخارج. وعلى العكس حين يتم -تحت ذرائع مضادَّة للذات الحضارية- فرض تغييرها قسرًا وعنوةً وبسرعة، أو حين يتمُّ تشويهها، بل وحين يتمُّ استبدالها، يحدث الاختلال الإنساني والمجتمعي والمؤسَّسي والنُّظمي، المادي والمعنوي، أي يحدث الاختلال في الحالة الحضارية.

وعلى صعيد التفاعلات العالمية بين الأمم والدول والتحديات التي تواجه الأمة، فإن الأبعاد الدينية الثقافية لهذه التحديات "هي الأبعاد المتَّصلة بآثار اختلاف الدين والثقافة والحضارة على اختلاف الرؤى والقيم وقواعد السلوك والأخلاق، وعلى اختلاف الرؤية للعالم ومعايير التقويم ودوافع السلوك وأسس الهوية. وهي ذات تأثير على المستويات التالية: أسس جديدة لتقسيم العالم - محرك للتفاعلات الدولية ومحدِّد لنمطها ولحالة النظام الدولي - أداة من أدوات السياسة وموضوع من موضوعاتها - محدِّد لخطاب النُّخب والقاعدة - وأخيرًا عنصر تفسيري أو تبريري للتحالفات، ومكون للقوة"[٤].

<u>ومن ثم، وعلى ضوء ما سبق، نستدعي مفهوم الحضاري كما تعرِّفه مدرسة المنظور الحضاري:</u>

فهو ليس صفة ولكنه رؤية ومنهاجية، نسبة لأصول حضارتنا الإسلامية (عقيدة وشريعة وقيمًا ومقاصد وسننًا)، ونسبة للحضارة الإسلامية ذاتها وتراثها في المجالات المتنوعة (فقهًا وفكرًا وفلسفة وعلومًا وطبيعة وعمارة وفنونًا وآدابًا وتاريخًا..)، ونسبة أيضًا إلى عدم الفصل بين ما هو مادي وقيمي، ما هو سياسي واجتماعي وثقافي، ما هو داخلي وخارجي، ما بين فقه الواقع وفقه التاريخ وفقه المستقبل، بين الفرد والمجتمع والدولة، أو بين الأمة والعالم.

والقيم في قلب هذه المنظومة كلها؛ لأن هذه المنظومة كلها تستهدف رؤية إيمانية للتدبُّر والنظر في أحوال الأمة وفي قلبها الإنسان والأسرة والمجتمعات.

إن نهوض أو نكوص الأمة ليس بفعل عوامل مادِّية مؤسَّسية نظُمية عُليا فحسْب، ولكن بفعل عوامل تتَّصل بقيم؛ سواء كانت راشدة فتُثمر طيبًا، أو ضالَّة فتُنتج خبيثًا. وبقدر ما تكون هناك تحديات للقيم تلقي بوطأتها على الأبعاد الدينية الثقافية الحضارية للمجتمعات بقدر ما توجد قيم التحدِّي القادرة -في حال تجديدها وتدعيمها وتفعيلها- على إنهاض الأمة من كبوتها.

وأخيرًا، وبعبارة جامعة موجزة عن الرابط بين الديني الثقافي والسياسي، فوفق نموذجنا المعرفي الإسلامي، ووفق رؤية حضارتنا للعالم، ووفق طبيعة نموذج هذه الحضارة في التاريخ العالمي؛ يقع الديني القيمي الأخلاقي في قلب هذه المنظومة وينعكس على الثقافي وعلى تفاعله مع السياسي. الأمر الذي يصبغ الحالة الحضارية برمَّتها للأمة من حيث انجدال المادي مع القيمي، سواء في مراحل الصعود أو الانحدار.

إن الحديث عن هذه الثلاثية (الديني - الثقافي - الحضاري) له حكاية خلال الربع الأول من القرن الحادي وعشرين على مستوى العالم والأمة في قلبه، وعلى صعيد علم العلاقات الدولية والفكر الإسلامي الحضاري؛ إلا أن "الحكاية المعاصرة" لا يحسن فهمها إلا على ضوء ذاكرتها التاريخية.

(٣)

فماذا تقول لنا الذاكرة التاريخية؟ وما الذي صبغ الربع الأول من القرن من جِدَّة؟ وما الجديد في المشهد القائم من حيث طبيعة وتأثير منظومة الديني - الثقافي - السياسي على الحالة لحضارية للأمة؟ ولماذا التركيز على المجتمعات، وهي نواة في قلب الأوطان التي هي بدورها مكون من مكونات الأمة التي هي أيضًا في قلب العالم، حيث تتحاضن هذه الدوائر ولا تنفصل؟

أولا- من الذاكرة التاريخية لتأثير الأبعاد الدينية الثقافية على الحالة الحضارية للأمة:

بالنظر إلى النموذجين الحضاريين المتقابلين: الإسلامي كما وصفناه، والغربي (الوضعي العلماني الحداثي)، فإن تاريخ تقابلهما أو تفاعلهما أو تصادمهما عبر نماذج الحرب والدبلوماسية والتعارف يبين نمطين مختلفين من العلاقة بين الأبعاد الدينية الثقافية والأخرى السياسية العسكرية في تشكيل توجُّه كلِّ نموذج نحو الآخر سواء في مرحلة قوته وشهوده أو ضعفه وتراجُعه.

فماذا حملت الفتوح الإسلامية ثم الحضارة الإسلامية إلى العالم عبر أكثر من اثني عشر قرنًا على التوالي، أي عبر الانتقال من الفاعلية والحضور إلى الدفاع؟ وماذا حملت الحضارة الغربية الحديثة منذ خمسة قرون مع تطور هجومها الحديث على العالم الإسلامي والعالم بأكمله باسم المدنية والتحضُّر والحداثة والعلمانية، تحت قصف الاستعمار الاستيطاني الاستئصالي للعالم الجديد أولا ثم

الاستعمار العسكري للعالم الإسلامي ثانيًا؟

لم تكن الغاية النهائية للهجمة الغربية في العصر الحديث -منذ بدايتها وفي تطورها متحالفة مع الصهيونية- تتمثَّل في السيطرة على الأرض والثروة فحسْب، ولكن أيضًا إسقاط النموذج الحضاري الإسلامي واستبداله. ولذا تحالفت الأدوات العسكرية والاقتصادية مع نظائرها الدينية الثقافية-الحضارية لتحقيق هذه الغاية النهائية عبر مخطط استراتيجي تتوالى تكتيكاته على الساحات المختلفة للمواجهة: السياسية، والعسكرية، والاقتصادية والدينية الثقافية-الحضارية.

فإذا كانت الهجمة الأوروبية الحديثة على عالم الإسلام منذ القرن السادس عشر قد بدأت مع الكشوف الجغرافية، ثم تطوَّرت أشكالها وآلياتها وأهدافها من السيطرة التجارية إلى التدخُّلات السياسية إلى اقتطاع الأطراف إلى الهجوم على القلب، ثم استكمال احتلال أراضي المسلمين وتجزئتها؛ فإن الأداتيْن الاقتصادية والعسكرية، وبدون انفصال عن الأدوات الدينية الثقافية، قد لعبتا الدور الأساسي خلال القرون الأربعة الأولى منذ بداية الهجمة، وذلك لتحقيق الدوافع والأهداف الاقتصادية والسياسية للقوى الأوروبية البازغة على الساحة العالمية، بالسيطرة على الأرض والثروة. ولم تنفصل هذه الحالة عن الغاية النهائية أي الانتصار على (النموذج) -أو الانتصار على (العقيدة)- في الإسلام، تلك العقيدة التي هي للأمة بمثابة الروح والقلب للجسد، ومن ثم فهي تنعكس على صميم الخصوصية الإسلامية المشتركة الحضارية والثقافية للشعوب الإسلامية.

ونظرًا لأن البُعد الحضاري-الثقافي-العقدي يُعَدُّ بُعْدًا محوريًّا في صراع القوى؛ ففيه تكْمن المداخل إلى ساحات الصراع الأخرى، وإليه ونحوه تصبُّ نتائج الصراع في تلك الساحات؛ لهذا كله فلقد شهدت المراحل المتتالية من الهجمة الأوروبية الحديثة توظيفًا لأدوات ثقافية-حضارية (الاستشراق - التبشير - المدارس الأجنبية...) لتُمهد للأداتين الأخريين المادِّيَّتين وتدعم من تأثيرهما؛ وذلك بتوفير النُّخب المتعاونة وتهيئة الأطر المناسبة للحركة تحت اسم الإصلاح والتحديث والتنوير. **حقيقة كانت حالة القوة المادية لدى المسلمين عند بداية الهجمة قد وصلت إلى درجة من التردِّي مكَّنت الآخرَ من عالم المسلمين**، وكانت الحاجة إلى الإصلاح والتغيير من داخل النموذج لتجديده، وليس لاستبداله بنموذج آخر يسعى إلى الهيمنة والسيطرة باستبعاد وإقصاء وتشويه -بل وتصفية- النماذج الأخرى بكل وسائل القسر والإكراه التي تنبثق عن القوة المادية وتحويل الغلبة المادية إلى غلبة قيمية حضارية(٥).

يقول البشري -ومثله رواد الفكر الإسلامي المعاصر الذين انشغلوا بهموم الأمة خلال القرون الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين- إن الاحتلال العسكري تمكن من الداخل لضعفه وحاجته إلى التجديد والنهوض، ولكن ميزان التجديد والإصلاح اختلَّ تحت وطأة الاحتلال الذي اصطحب منذ القرن الثامن عشر (سواء في موجته الماركنتيلية نحو الشرق الأقصى وسواحل جنوب آسيا وأفريقيا وغربها، أو خلال انقضاضه العسكري على أرض قلب العالم الإسلامي وأطرافه لاحتلالها) الأدوات الدينية والاجتماعية والثقافية التي تمهِّد أو تدعم العمليات العسكرية ثم عملية الاحتلال الكامل للأرض (مصر والشام والجزيرة وشمال أفريقيا، وآسيا الوسطى والقوقاز، والبلقان، والقلب الأفريقي جنوب الصحراء وسواحله الغربية والشرقية).

إن تاريخ العالم الإسلامي الفكري والاجتماعي، الذي لا يلقى قدرًا من الاهتمام كالذي يلقاه نظيره السياسي العسكري، يقدِّم أنماطًا متنوعة من كيفية تأثير هذه الحقبة على شعوب ومجتمعات الأمة: قسرًا وفرضًا، أم طوعًا ورغبةً في النقل عن الغرب (قوانين - نظمًا إدارية - نظمًا تعليمية وتربوية - نظمًا ترفيهية وإعلامية - تنظيمات اجتماعية)؛ كانت جميعها تدفع إلى الوراء أو تصفِّي أو تقيِّد نظائرَها الحضارية الإسلامية التي كانت متهاويةً وتحتاج إلى تجديدها وليس تشويهها أو استبدالها باسم التحديث الذي لم يتمَّ على الإطلاق حتى الآن على النمط الغربي الحداثي الوضعي.

وتقدِّم هذه الذاكرة التاريخية دلالة مهمَّة، فكما يقول البشري: "إن أول شروط الإصلاح الحقيقي هو أن يكون صناعة محلية صرفًا في حالة الأوطان القُطرية، وصناعة حضارية واعية في حالة الكيان الأشمل: الأمة. ومن ثمَّ يتشكَّل هذا الإصلاح في ممارساته وإجراءاته، ثم في تكوينه، من المادة الوطنية والحضارية دون غيرها"(٦).

ومن أبرز الأمثلة التي طرحها البشري حالة مرحلة التنظيمات في الدولة العثمانية تحت ضغط الهزائم العسكرية في القرن التاسع عشر: "لقد زالت الدولة العثمانية من الوجود، بعد أن جرت بها كل محاولات الإصلاح باسم المحافظة عليها، والنهوض بها. ولكنها كانت أنماطًا من الإصلاح ضالة، أفسدت حيث أراد منفذوها بها الإصلاح، أو قالوا ذلك. إن ما يلزم نُكرانه، حتى بمعيار المنفعة، أن نموذجًا للإصلاح يَفِدُ، يكون له من النفع مثل ما له في البيئة الاجتماعية التي تفتَّقت عنه، برغم اختلاف النسق واختلاف السياق، وأن العصر الأوروبي هو نفسه العصر العثماني ما دام القرن التاسع عشر للميلاد قد شملهما، وأن النماذج التنظيمية والفكرية يمكن أن تتجرَّد عن أنساقها ومساقها لتصير -باسم وحدة العصر- حديثة صالحة في ذاتها أو قديمة بالية في ذاتها. وأكاد أتجاسر بالزعم أن زوال الدولة العثمانية: إن كان يرجع إلى عوامل كثيرة، فقد أسهمت في هذا الزوال حركات "الإصلاح والتجديد"، بمثل ما أسْهمت فيه روح "الجمود والمحافظة"!".

كما شهدت كل أقطار العالم الإسلامي المحتلَّة وخاصة الأركان منها تحت وطأة الاحتلال ذاته، نمطًا مناظرًا من إعادة التشكيل الداخلي لم يسفر عن التحديث المأمول من المحتل أو التجديد المأمول من الشعوب.

ثانيًا- المرحلة المعاصرة من تأثير الأبعاد الدينية - الثقافية على الحالة الحضارية للأمة:

من الذائع السائد تقسيم مراحل تطور النظام الدولي (خلال القرنين الماضيين على الأقل) وفق معايير "الكبار" في الغرب؛ على سبيل المثال: نظام توازن القوى المتعدِّدة، والسلام البريطاني ما قبل وبعد الحرب العالمية الأولى، نظام القطبية الثنائية والحرب الباردة بعد الحرب العالمية الثانية، نظام ما بعد الحرب الباردة والأحادية الأمريكية ، وأخيرا وليس آخرا النظام العالمي الجديد والعولمة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي.

ويقول البشري(٧) إن هذه تواريخهم هم جعلوها تواريخ العالم، ولكننا نحن لنا تواريخنا الخاصة بنا خلال القرنين الماضيين ذاتهما؛ وهنا استدعى: تصفية وإسقاط آخر خلافة إسلامية، استعمار واحتلال العالم الإسلامي، مؤتمر برلين ١٨٨٧ لاقتسام أفريقيا، واتفاق سايكس بيكو ١٩١٧ لاقتسام الشام، حركات مقاومة الاستعمار والاستقلال للدول الحديثة، حالة التبعية ثم الاحتلال العسكري من جديد، حركات ومشروعات

الإصلاح، أزمة المشروع الحضاري الإسلامي.

ومن ثم، فالمرحلة المعاصرة المعنية هنا (وللبشري رؤية فائقة في مفهوم المعاصرة)[٨] تشغل مفصلا تاريخيًّا أكثر اتِّساعًا من الربع الأول من القرن العشرين؛ لأن بدايات ونهايات القرون أكثر تعقيدًا، فهي تبدأ أو تنتهي مع مراحل تحول حتى تُثمر نتيجتها. وبالنسبة لوضع الأمة المعاصر في العالم، فلقد بدأ يتحول قبل ٢٠٠٠، منذ حرب أكتوبر ١٩٧٣ والثورة الإيرانية ١٩٧٨، واحتلال أفغانستان ومقاومتها (١٩٧٩-١٩٩١)، والصحوة الإسلامية في الجزائر ومصر وماليزيا وتركيا، والانتفاضتين الفلسطينية الأولى (١٩٨٧) والثانية (٢٠٠٠)... إلخ من تواريخنا المقاوِمة. وكانت لنهاية الحرب الباردة والعولمة تأثيراتها التحولية.

إن التغيُّرات ثم التحوُّلات التي تشهدها فضاءات العالم الحضارية وفي قلبها فضاء أمتنا الحضاري بكافة تنويعاته، وأيًّا كان اسمه: عالم إسلامي أم دول إسلامية، تتمُّ على أكثر من مستوى يمكن أن نرصد على صعيده التأثير المتبادل بين منظومة الأبعاد الدينية-الثقافية الحضارية ونظائرها السياسية والاقتصادية والعسكرية:

- تحولات نظمية كلية واستراتيجيات القوى الكبرى العالمية تجاه وحدات العالم الحضارية، وفي قلبها أمتنا، باستخدام سياسات وأدوات مختلفة للتدخل.

- الأوضاع الداخلية في الأوطان والجماعات عبر أرجاء العالم الإسلامي، وكيف يُعاد تشكيلُها في إطار سياسات نظم داخلية تخضع لكلِّ أنماط التدخُّلات الخارجية وما تُفرزه من تحديات وتهديدات.

- بعد التجزئة وإعادة التشكيل الداخلي وفك أواصر الرابطة الإسلامية وفق حدود مصطنعة في ظل الاستعمار ومرحلة الاستقلال، تأتي مرحلة تجزئة المجزَّأ -أي تجزئة الدول الحديثة ذاتها- بحروب وأدوات متنوِّعة تستهدف الشعوب ومن داخلها.

ومع أن هذه المستويات الثلاثة غير منفصلة بالطبع، فإنه وفق رؤية المنظور الحضاري فإن "الداخل" هو المبتدى وهو المنتهى، ولا يتمكَّن الخارج من الداخل والبيني إلا بقدر فساد وضعف المنظومة القيمية لهذا الداخل وانعكاساتها على منظومة القوة المادية. ولكن بقدر استمرار التهديدات والتحديات الخارجية للأمة، والتي كانت تستهدف نموذجها ذاته، بقدر ما استمرت هذه الأمة مقاوِمة وبقوة ضدَّ هذه التحديات والتهديدات، والعكس صحيح. **فالقراءة المتأنِّية لتاريخ وضع الأمة العالمي خلال القرنين التاسع عشر والعشرين تبيِّن كيف زادت وطأة الخارجي دون استجابة فعَّالة بصفة عامة من الأمة... وكان للمفصل التاريخي الأخير (منذ ١٩٩١) خصوصية لأكثر من عامل استهدف بقوة -على نحو غير مسبوق من حيث الكثافة والنمط- منظومة الديني الثقافي الحضاري للأمة، ممَّا نال من كفاءة أنماط المقاومة الحضارية وهدَّد نتائج التجديد الحضاري.**

وكما سبقت الإشارة، فإن هذه المنظومة لا تنفصل أبدًا، ولا يمكن التدبُّر فيها مطلقًا، منفصلة عن المنظومات الصلدة، قوةً أو ضعفًا؛ بحيث ينبغي ألا نسأل: من يؤثِّر على من؟ ولكن نسأل: ما هي أنماط التفاعل بين المنظومتين؟ ومتى يصبح لأحدهما التأثير الأكبر على الآخر؟ وكيف ينعكس هذا على الحالة الحضارية للوطن أو الإقليم أو الأمة؟

ولقد تنوَّعت المداخل إلى حالة المنظومة الثلاثية في الأمة وحولها خلال العقود الأربعة الماضية. ومن ثمَّ فإن خريطة مشاهد هذه الحالة، وخريطة قضاياها

ومسائلها المتنوّعة، تحمل أصداءَ جدالات نظرية وحوارات واقعية ثرية ومركَّبة. جميعها تُعلن صعود وزن هذه المنظومة الثلاثية وأهميتها على الساحة العالمية بصفة عامة وعلى ساحة الأمة الإسلامية بصفة خاصة. ولكن كيف تطورت ماهيتها وتأثيراتها عبر أربعة عقود؟

(١) العالم الإسلامي والنظام العالمي الجديد والعولمة (١٩٩١-٢٠٠١):

منذ انتهاء الحرب الباردة ١٩٩١ واقتراب نهاية القرن العشرين دخلت الأمة مرحلةً أخرى من مراحل إعادة تشكيل مناطق الأمَّة والعلاقات فيما بين مكوّناتها والعلاقات بينها وبين بقية العالم. وهي مرحلة أخرى من مسلسل المشهودية منذ القرن التاسع عشر التي مارس فيها الخارج تأثيراته على الأمة ودواخلها بأدوات متنوّعة واكتسبت المنظومة الثلاثية طابعَها الخاص وفق طبيعة هذه المرحلة.

(أ) وإذا كانت مفردات "النظام العالمي الجديد"، "ما بعد الحرب الباردة"، "العولمة"، قد شغلت الاهتمام خلال العقد الأخير من القرن العشرين؛ وأضحت مفردات طنانةً تختلف حولها الرؤى والمنظورات، فإن الأمة -من ناحية أخرى- كانت تموج بتحولاتها التي برزت في قلبها المنظومة الثلاثية في تفاعلها مع السياسي العسكري الاقتصادي:

تحولات بدأت من حرب أفغانستان لدحر الاحتلال السوفيتي، إلى حروب القوقاز من أجل الاستقلال عن روسيا الجديدة، إلى حرب الخليج الثانية (العراق / الكويت / التحالف الدولي) بعد أن وضعت حرب الخليج الأولى (العراق / إيران) أوزارها، إلى محاولات انفصال جنوب اليمن عن شماله فاتحادهما، إلى مسلسل اتفاقات التسوية السلمية مع إسرائيل، إلى حروب البلقان، إلى حروب انفصال جنوب السودان وأكراد العراق. وجميعها انفجرت في هذه المرحلة التحوُّلية من النظام الدولي كما حدث في مراحل سابقة، فجميعها كانت ذات جذور تاريخية وأبعاد دينية ثقافية ظاهرة، أضحت محرِّكًا ودافعًا لأصحابها من ناحية واستغلَّها الخارج من ناحية أخرى كأداة للتدخُّل في هذه المناطق الساخنة، على الأقل من أجل إعادة الأوضاع إلى ما كانت عليها دون إحداث تغييرات مفصلية (باستثناء انفصال جنوب السودان عن السودان، وإقليم أتشيه عن إندونيسيا) حفاظًا على استقرار توازنات إقليمية هشَّة.

(ب) وفي المقابل مارست "العولمة" تأثيراتها على العالم الإسلامي، فهل كانت العولمة عدوًّا أم صديقًا للمسلمين[٩]؟

فمع تجاوز تفاصيل الجدالات النظرية والسياسية الساخنة والثرية حول ماهية العولمة وأسبابها، وحول آثارها المتنوعة على أرجاء العالم، يمكن القول إنه من الصعوبة القبول التام أو الرفض التام للعولمة بدون أن نتبيَّن ماذا يجب أن نقبل وماذا يجب أن نرفض. ومن ثم لا بدَّ من التمييز بين ثلاثة مستويات للعولمة:

الأول- هو مستوى ماهيَّتها بوصفها عملية عالمية ناتجة عن الثورة الثالثة "العلمية والاتصالية" (بعد الثورة الزراعية، والثورة الصناعية) وما ترتَّب عليها من تأثير على عامل المسافة وعامل الزمن، ومن ثمَّ على زيادة درجة تأثير الخارجي وتخطِّيه حواجز الحدود القومية.

المستوى الثاني- مستوى أيديولوجيا العولمة؛ ومن ثم طبيعة محتوى العمليَّات العولميَّة الجارية على الأصعدة المختلفة، ومن يتحكَّم في المحتوى ووجهته وأهدافه؛ وهذا المستوى عَكَسَ بوضوح

تفوُّق النموذج الحضاري الرأسمالي الوضعي العلماني على غيره. فإن أيديولوجيته هي المتحكمة، وترمي وتسعى إلى تأكيد هيمنته الأحادية على العالم. وكان العالم الإسلامي في قلب هذا الاستهداف على نحو لعبت فيه الأدوات الثقافية الدينية أدوارها في تبرير أو دعم سياسات القوة الصلدة، أو -وهو الأهم- "خلق عدو جديد" بعد انهيار "العدو الشيوعي"، وهو "الإسلام والمسلمين".

المستوى الثالث- مستوى السياسات المنبثقة عن الأيديولوجية الحاكمة، والتي ترجمتْها مؤتمرات العولمة في مجالات: البيئة (١٩٩٢)، حقوق الإنسان (١٩٩٣)، التنمية (١٩٩٤)، منع انتشار الأسلحة النووية (١٩٩٥)، تحرير التجارة العالمية (١٩٩٥)؛ وجميعها تفرز المزيد من التحديات الخارجية على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والأمنية في الجنوب بصفة عامة وليس العالم الإسلامي وحده.

إلا أن المساحة التي تميَّز وتفوق فيها تحدِّي العولمة للأمة مقارنة بغيرها من أمم "الجنوب" هو المجال الديني الثقافي الاجتماعي؛ أي الحضاري بصفة عامة؛ نظرًا لما تمثِّله العولمة من اختراق كثيف وعميق للداخل يمسُّ الشعوبَ مباشرةً على نحوٍ يمتدُّ فيه الاختراق للداخل الاجتماعي الثقافي بصورة مباشرة وليس فقط كنتاج لتأثيرات وأدوات سياسية اقتصادية بالأساس. وكان خطاب "صدام الحضارات" ونهاية التاريخ، علامة صريحة جليَّة معلَنة من "الغرب" ذاته على منحى استدعاء الدين والثقافة إلى ساحة المواجهة العالمية بالقدر والنمط الذي يريده؛ أي العلماني الأداتي، خدمةً لأهداف التكيُّف الغربي لإحكام الهيمنة الغربية التي بدأت تظهر مؤشرات لمقاومتها.

وحيث كان لا بدَّ من "عدو جديد"، قفز الإسلام والمسلمون والعالم الإسلامي والدول الإسلامية في قلب اهتمام السياسات من ناحية والجدالات الفكرية والتنظيرات الأكاديمية من ناحية أخرى.

(ج) في هذه المرحلة التمهيدية من تحول النظام العالمي للألفية الثالثة لم تكن "سياسات العولمة الثقافية" التدخُّلية قد مَدَّتْ أصابعَها بقوَّة بعد لإعادة تشكيل الوعي بالذات والهوية أو الرؤية للعدو على صعيد الأمة. وفي المقابل انشغلت عقول الأمة، الرسمية والفكرية والأكاديمية، بالاشتباك الحواري مع مقولة "صدام الحضارات" والعولمة الثقافية أو الثقافة العالمية وموضع الثقافة والحضارة الإسلامية في النظام العالمي الجديد[١٠].

واتَّسمت الحالة العاقلة الرشيدة من الحوارات (المتجاوزة لحالة الهجاء الانفعالية فقط للعولمة) بأمرين: من ناحية أولى تميزت بالتحذير من الطبيعة الانفعالية في الهجوم على العولمة، ومن ناحية أخرى تميزت بالتفكير في كيفية مواجهة العواقب السلبية للعولمة وماهية العولمة المضادة أو البديلة "الإيجابية".

والرؤية الإسلامية الحضارية للعولمة لا تفصل بين أبعادها المادية والأخرى القيمية، كما أنها تنبِّه إلى ذاكرتها التاريخية لكونها عمليات غير مستحدثة أو طارئة أو جديدة ولكنها عمليات متَّصلة وممتدَّة اختبرتْها الأمة في أشكال أخرى من قبل. ومن ثم حذَّرت هذه الرؤية من أن ساحة الدين والثقافة والحضارة أضحت مع العولمة المعاصرة -التي تصل مباشرة للشعوب- آخر خطوط دفاع الأمة، وخاصة بعد أن أضحت أدوات الاختراق والتدخُّل الخارجي الدينية الثقافية في تناغم شديد بل واندماج واضح مع السياسات الاقتصادية والعسكرية الخارجية تجاه الأمة، وعن بُعد وبدون احتلال عسكري من

جديد (حتى ما قبل ٢٠٠١).

كما أن هذه الرؤية الإسلامية الحضارية -وإن تصدَّت لنظرية "صدام الحضارات" بالنقد- إلا أنها لم ترفضها بحجج أو مبررات اعتذارية دفاعية عن حضارة الإسلام والمسلمين أو مضادات هجومية عدائية للحضارة الغربية كما فعلت بعض الاتجاهات الفكرية الإسلامية. ومن ثم تمثَّلت أبعاد هذه الرؤية في الآتي: من ناحية رفض ثنائية حوار أم صراع الحضارات؛ لاعتبار أن الصراع حالة والحوار أداة، وأنه لا يمكن من ناحية أخرى أن يؤسِّس اختلافُ الأديان والثقافات والحضارات لصراع دائم أو تعاون دائم.

ومن ثم يصبح السؤال: **متى تتصادم الأديان والثقافات والحضارات في صراع، ومتى تتقابل في تعاون أو حوار أو تثاقف؟ ولماذا وكيف؟** وبالمثل، **ما هي شروط الحوار الفاعل (على ضوء الرؤية التأصيلية الإسلامية للحوار)، وكيف يتحوَّل إلى أداة سياسية لفرض الهيمنة أو تغلُّب رؤية أو موقف على آخر؟** ومن ثم، هل كانت الحالة الدولية القائمة بعد انتهاء الحرب الباردة بصفة خاصة تسمح بحوار رشيد أم أنها تسعى تحت ضغط الانفراد إلى إعلان تفوق نمط حضاري على آخر بل وفرضه قَسْرًا، فكريًّا وعمليًّا؟

(٢) العدوان على الأمة بعد ٩/١١ باسم محاربة الإرهاب، والهجمة عليها باسم الإصلاح المفروض من الخارج لتغيير الوعي والهوية (٢٠٠١-٢٠١١)

(أ) كانت أحداث ٩/١١ بمثابة تفجير ساخن لاستدعاء الديني-الثقافي والأمة على ساحة الاستراتيجية العالمية الغربية للدفاع عن "الهيمنة"، في حرب عالمية معلنة ومنظَّمة ضد ما سُمِّيَ "الإرهاب الإسلامي". ومن ثم تجدَّدت الجدالات حول "العولمة" وحول "العلاقة بين الأديان والحضارات والثقافات وحول تأثير الدين والثقافة على العلاقات الدولية، ولكن في أجواء أكثر حدة وسخونة تحت قصف المدافع، وعودة الاحتلال العسكري لأوطان من الأمة (أفغانستان والعراق) تحت أردية وأقنعة جديدة: محاربة الإرهاب - أسلحة الدمار الشامل... إلخ[١١].

كما اكتسبت هذه الجدالات صبغة أخرى بعد أن أصبح الطرف الإسلامي متهمًا بوضوح وعلانية بالإرهاب وليس أنه مجرد مصدر تهديد "محتمل" كما ساد منذ ١٩٩١. ورغم صعود الأبعاد الدينية الثقافية الحضارية للصراع الدولي منذ ٢٠٠١ إلا أنها لم تنفصل أبدًا بدورها عن استدعاء صراع مصالح القوى التقليدية.

(ب) ولكن ظلت الشعوب التي في قلب النمطين من الصراع لا تتحمل أعباء المواجهة بمفردها؛ حيث ظلت النظم الداخلية في مرحلة الدفاع، تبريرًا واعتذارًا عن النفس، وعن الإسلام والمسلمين ضد اتهامات القوى الغربية الكبرى (وحليفتها إسرائيل)، قبل أن تبدأ بعد ذلك في تنفيذ سياسات قسرية تدخُّلية. ولهذا امتلأت الساحة بمبادرات الحوار ومؤتمراته الرسمية والمدنية (طيلة عقد من الزمان لم تسكت فيه المدافع) وشاركت المؤسسات الرسمية الإسلامية والدبلوماسية في هذه الحوارات على نحو نشط وكثيف سواء بالمبادرة أو الاستجابة لمبادرة نظائرها في الغرب.

واحتدم الجدال السياسي والفكري حول من يحاور من؟ وحول ماذا؟ وكيف؟ وإلى أين؟ حتى أضحى "الجدال" ذاته كأنه هدف، أملا في أن يفك "الحوار" حالة التأزم العالمية المحتدمة حول الأمة عسكريًّا واقتصاديًّا وأيضًا اجتماعيًّا وثقافيًّا. وظلَّت الرؤية الإسلامية الحضارية عن "العلاقة بين

الحضارات وأدواتها (السابق الإشارة إليها) تناطح اتجاهات أخرى.

فلقد استمرَّ انقسام الاتجاهات حول وزن الأبعاد الدينية الثقافية الحضارية بالمقارنة بغيرها، ولكن اقترن هذه المرة وتأثَّر بالسياسة الأمريكية العالمية تجاه عالم الإسلام والمسلمين بعد الحادي عشر من سبتمبر. وبالرغم من تزايد الاعتراف بوضوح المفردات الدينية الثقافية والحضارية في الخطابات الأمريكية الرسمية وغير الرسمية -سواء الصدامية منها أو الحوارية- فلقد ظل هناك اتجاه يرفض التفسير الثقافوي للسياسة الأمريكية.

وفي المقابل اعترف اتجاهٌ آخر بأن المرحلة الحالية من السياسة الأمريكية تكشف بوضوح عن صراع حضاري تجاه الإسلام والمسلمين، يصبح معه الحديث عن الحوار من قبيل الاستسلام؛ لأن الحوار الذي سيدور سيكون بشروط الغرب، ووفق مدركاته، ونحو غايته؛ ألا وهي "الإسلام المعتدل - العلماني - الليبرالي - منزوع السلاح وكافة عناصر القوة".

(ج) وفي المقابل، وعلى ساحة صراع السياسات وليس "جدال الأفكار"، وبقدر ما أدخل الحادي عشر من سبتمبر النظام العالمي مرحلة إعادة تشكيل موازين قوى إقليمية وعالمية بقيادة أمريكية، بقدر ما أضحت مجتمعات الأمة تواجه تحديات تفرضها سياسات تدخُّلية مفروضة من الخارج قَسْرًا باسم "**الإصلاح**" أجمعت على تصميمها وترويجها وفرضها مؤسسات أمريكية وأوروبية متنوّعة، رسمية ومدنية على حَدٍّ سواء. كل ذلك في إطار الدعوة إلى "شرق أوسط جديد" وتحت شعار "الفوضى الخلاقة" التي لا تستهدف تغيير النظم بالقوة العسكرية فقط، كما حدث مع العراق وأفغانستان، ولكن أيضًا تغيير المجتمعات الإسلامية من الداخل، وبطريقة فجَّة وصريحة وباستخدام أدوات تدخُّلية دينية ثقافية متعدِّدة مثل "الحوارات"، والدبلوماسية العامة، والدبلوماسية الشعبية... ناهيك عن تغيُّرات مفروضة في عدَّة مجالات على رأسها التعليم. وذلك تصديًا وعلاجًا لمقولة "لماذا يكرهوننا؟". وحتى ذلك الحين من تطور المسار المعلن من السياسات والخطابات الغربية كان المقصود علنًا هو قوى الشر (الإرهاب الإسلامي) وليس الإسلام والمسلمين.

بعبارة أخرى، لم تكن "أولى حروب القرن الحادي والعشرين بعد ١١ سبتمبر حربًا عسكرية فقط ولكن كانت ثقافية اجتماعية أيضًا، في ظلِّ احتلال أو تدخُّل عسكري أمريكي وانكشاف دورٍ صهيونيٍّ متجدِّد ينتهز الموجة التي يركبها المحافظون الجدد والأصولية المسيحية البروتستانتية الأمريكية، ويفرض المزيد من الضغوط على الحليف الغربي لاستهداف كل أنماط المقاومة الفلسطينية والعربية بذريعة الإرهاب[١٢].

وهكذا تم استهداف المجتمعات الإسلامية بمجموعة من السياسات التي تدعي استهداف "إصلاح"[١٣] عدة مجالات، على نحو أثار كل الأسئلة حول إشكاليات الإصلاح بين الداخل والخارج وحول آثار الإصلاح المفروض من الخارج ومدى ضغطه على البنى الداخلية الدينية والثقافية والاجتماعية والسياسية أيضًا، ناهيك عن علاقته بالإصلاح المنشود، فهي بنى في حاجة للإصلاح بالفعل؛ ولكن كيف ولماذا؟

في هذه الآونة طُرح -من جديد- قضية الإصلاح في الأمة؛ فهي ليست قضية مستحدثة بل هي من أبجديات المرجعية الإسلامية، وكانت تقترن -في خطابات تراثنا وتاريخنا بمفردات أخرى- "التجديد، النهوض، النهضة"، على ما بينها بالطبع من تمايزات.

لم تنقطع الأمة أبدًا عن تجارب الإصلاح أو التجديد، فكريًّا أو سياسيًّا أو مجتمعيًّا، فلقد حفل تاريخنا الإسلامي في عصوره المتوالية بتجارب متنوعة أثارت من الجدالات ربما ما لا يقل عما أثارته من موافقات ومقاربات، إلا أنها جميعًا كانت من داخل أمتنا (في إطار تثاقفها الرشيد مع غيرها وفي إطار مرجعية الأمة)، غير مفروضة من خارجها.

ومن ناحية أخرى، تنوَّعت مداخل مشروعات الإصلاح ومدارسه في تاريخ أمتنا، وتطورت فيما بين حركات الإصلاح الحديثة والمعاصرة خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين على الأقل، وتبيّن تنوُّع هذه المداخل (دعوية، تربوية، اجتماعية، سياسية..) التي لم تُترجم معظمها إلى حركات وسياسات، كما أعطت كلٌّ منها الأولوية لمجال من الإصلاح على حساب الآخر، وتأثر كلٌّ منها بطبيعة سياقه الزماني والمكاني. إلا أن التعدُّد في إطار وحدة المرجعية هو من مظاهر التعبير عن شمول الإسلام، فإن كانت منطلقات المرجعية الأصيلة واحدة إلا أن تعدُّد جوانب الحياة وتنوُّع قضاياها من مكان لآخر ومن فترة لأخرى يقود إلى تنوُّع الرؤى وتعدُّد اجتهادات الإصلاح من مرجعية إسلامية جامعة لا تقيِّد ولا تمنع التنوُّع.

وعلى العكس، كان "الإصلاح" المطلوب -وفق الخارطة الأمريكية وأهدافها- يمتدُّ إلى عدَّة مجالات، ويحدِّد توجُّهات الإصلاح المفروض وأهدافه من خارج المرجعية الحضارية للأمَّة. ولذا أضحت سياسات هذا الإصلاح المفروض تحمل من التحديات أكثر مما تحمل من الفرص، وخاصة في ظل إذعان واستسلام النظم للتدخُّلات الخارجية بل والتعاون معها في تنفيذ "تغييرات" ضالَّة في العديد من المجالات الداخلية. وهذه المجالات هي:

- التحول الديمقراطي وحقوق الإنسان لتبرير تدخلات عسكرية وغيرها باسم الاعتبارات الإنسانية والاستقرار العالمي من ناحية، وتحت طنين "منظومة القيم الغربية" الأصلح عالميًّا من ناحية أخرى. وبالطبع كانت "ديمقراطية علمانية لا تقبل العلاقة بين الإسلام والسياسة والدولة، وتنبني أيضًا منظومة حقوق الإنسان على نفس الإطار. كانت الأمة في حاجة إلى الحرية والمساواة، واحترام القانون وحكمه ولكن كيف ولمن وبواسطة من؟ فبقدر ما أرادت النظم التحلّي بأُطر إجرائية ديمقراطية - لتنفي عن نفسها "الإرهاب"، بقدر ما استغلَّتها ضدَّ المعارضين من مرجعيات متنوعة وباسم الإرهاب (السم في العسل).

- مقتضيات تحرير التجارة العالمية وعولمة رأس المال وفتح الأسواق للاستثمارات الخارجية والقروض والمعونات المشروطة التي لم تُحدِث تنمية بقدر ما سارعت بنمو استهلاكي استيرادي لصالح طبقات على حساب طبقات وبدون عدالة اجتماعية في التوزيع. الأمر الذي مهَّدَ لتحوُّلات نحو مزيد من التهميش والإفقار والديون، على نحو مثَّل بدوره سياقًا مادِّيًّا ضاغطًا بقوة وبشكل سلبيٍّ على الهوية والقيم والأخلاق والعادات والتقاليد التكافلية التراحمية، ومن ثم على درجة وعي المجتمعات وقدرتها على المبادرة.

- الضغط من أجل تغيرات في أعصاب الأمة وعمودها الفقري: قوانين الأحوال الشخصية والأسرة - المرأة - الشباب - التعليم - الدعوة - التربية - الخطاب الديني - الفنون والإعلام[١٤]... إلخ. وجميعها أضحت أسيرة فوضى التأرجح بين الأصل والوافد الضاغط، وفيما بين مصالح الداخل ومصالح الخارج الضاغطة. فعلى سبيل المثال وليس الحصر،

من ناحية: تغيير مناهج التعليم فيما يتصل بالعدو الصهيوني والسلام معه، وصورة اليهود، ومفاهيم الجهاد. **ومن ناحية ثانية: المواطنة والتربية المدنية** بالتركيز على حقوق "غير المسلمين" بصفة خاصة والانتماء للدولة وليس للأمة، والمواطنة سياسيًّا (المشاركة والمراقبة والمحاسبة) ليست المعارضة. **ومن ناحية ثالثة: تجديد الخطاب الديني** لتعبئة الرضا بالأمر الواقع، والاكتفاء بجهاد النفس واستبعاد الجهاد العسكري، وتغليب طاعة أولي الأمر على حساب رفض ظلم، والصبر على الفقر، وتغليب الأمن الذاتي وأمن النظم والدول على حساب النصرة للمستضعفين. **ومن ناحية رابعة: حقوق المرأة** الفرد المجتزأة عن أسرتها ومجتمعها والمتغافلة عن الواجبات في مقابل أولوية الحقوق... إلخ.

إن التفصيل في السياسات المفروضة والمُنَفَّذة في هذه المجالات يبرز كيف أن "أبعادها الدينية - الثقافية" الأصلية قد تآكلت لصالح أبعاد سياسية مصلحية داخلية وخارجية، وبذا ظهرت فوضى خطابات الإصلاح، ما بين الإصلاح الديني والإصلاح السياسي، ويقع ضحية بينهما الحاجة إلى ثقافة التغيير أم تغيير الثقافة.

ثالثًا- من إجهاض الثورات واشتعال الحروب الداخلية في الأوطان إلى اندلاع طوفان الأقصى: (٢٠١١ - .....)

هل أثمرت سياسات الإصلاح المفروضة من الخارج في تغيير الثقافة أو السياسة أو المجتمع أو الاقتصاد في القلب العربي والجوارين الحضاري الإيراني والتركي، وفي القلب الآسيوي والقلب الأفريقي من الأمة؟ وإلى أين؟ هذا ما تحاول دراسات الحولية أن تشتبك مع حالته الحضارية الحالية.

تداعت على الأمة -بعد عقد العولمة وعبر عقد الاستراتيجية العالمية لمكافحة الإرهاب بقيادة أمريكية- التحديات المادية وغير المادية المتفاعلة. ففي مقابل الاهتمامات بأزمات التنمية الاقتصادية العالمية والداخلية توالت أيضًا الاهتمامات بأزمات الثقافة والخصوصية والهُوية والعلاقة بالآخر، مجدولة بخطابات العلاقة بين الحرب والسلام في الإسلام ودور الحركات الإسلامية السلمية والمسلَّحة.

وكانت الساحة الثقافية في الأمَّة عبر العقدين السابقين قد تولَّدت عنها خريطة من المسائل الدينية الثقافية الاجتماعية التي تلوَّنت بسياقي العقدين السياسي والاقتصادي: الاتجاهات الفكرية المتنافسة في العالم الإسلامي وأنماط استجاباتها للغرب - حروب على رموز إسلامية - الدبلوماسية الشعبية أم دبلوماسية المؤسسات الثقافية الإسلامية - دور المراكز الثقافية الغربية المضادَّة في العالم الإسلامي - مبادرات وخبرات حوار الأديان أو الحضارات - اللغة العربية والهُوية والحضارة.

وفي المقابل، كانت هناك الأبعاد الدينية والثقافية لسياسات دول الأركان، وللمقاومة الفلسطينية والاستراتيجية الصهيونية، واستمرار صمود نموذج المقاومة الإسلامي، والاهتمام بالقيم الآسيوية والعولمة والإسلام، ومآل هوية البلقان والقوقاز بعد سكوت المَدافع، والدفاع عن الهوية أمام تصاعد سياسات الاستيعاب والإدماج لمسلمي الغرب في أوروبا.

إذن كيف كانت محصِّلة عِقدين من استهداف الخارج للأمة؟ لم يكن الاستسلام أو الخضوع، فبعد الحركات المضادة للعولمة من قلب الغرب ذاته وبعد استقرار عمليات إعادة تشكيل أقاليم البلقان والقوقاز وآسيا الوسطى من ناحية، وبعد إثمار عمليات نهوض حضاري متنوِّعة في جنوب شرق آسيا

/ وإيران / وتركيا / ومسلمي أوروبا، جاء الدور على القلب العربي لينتفض.

(١) كانت موجات الثورات العربية المتتالية ٢٠١١، ٢٠١٩ نماذج حضارية متنوعة، ذات مطالب عدالة اجتماعية و اقتصادية بالأساس وليس سياسية فقط.

كانت ثورات ذات صبغة حضارية، استدعت النواة الصلدة لهُوية الأمة (الإسلام) في قلب تفاعلات وأدوات هذه الثورات؛ حيث برز على صعيدها دور حركات وجماعات إسلامية متنوّعة (محظورة أو مقيَّدة)، كفاعل أو كمفعول به، إلى جانب قوى وحركات وطنية أخرى، سبق أن لعبت جميعها أدوارها السياسية السلمية.

وكما أبرز عدد سابق من أمتي في العالم: "في تطور تاريخ أوطانها، لم تكن هذه الثورات نبتًا شيطانيًّا، ولكن كانت إبرازًا لمنظومة كامنة من الأفكار والمفاتيح والمبادئ والقيم وثقافة لطالما عانت الكبت والتقييد والتشويه من جانب ظلم متمكِّن وطغيان متحكِّم وتدخُّل خارجي مُسْتَعْلٍ... إلا أن الشعوب ما استكانت أو ضعُفت نظرًا لأصالة ثقافتها. بعبارة أخرى، إذا كان الاهتمام الساري يركِّز دائمًا على رصد السلبيات التي أصابت العقل والوجدان وأنماط العيش والسلوك في أمَّتنا، ومحاولة تفسيرها وعلاجها، فإن اندلاع الثورات على النحو الذي جاءت عليه حتى تكالبت عليها الثورات المضادَّة لإجهاضها كان تحديًا واستجابة في نفس الوقت لكلِّ ما قيل (طيلة ما يزيد عن القرنين) ويُقال عن مظاهر وأسباب أزمة الثقافة العربية الإسلامية وعلاقاتها بسياقاتها السياسية والاقتصادية الداخلية والخارجية على حدٍّ سواء... ومن ثم ما وضْع الإسلام من هذه الأزمة وهذه السياقات؟ وهل أمَّتنا في حاجة إلى ثقافة التغيير أم تغيير الثقافة الإسلامية؟ جميعها خلاصات وأسئلة نظمية كلية، كان كلُّ إقليم حضاري يقدم لها إجاباته ولكن في إطار جامع حضاري مشترك...

ولقد بان من تفاعلات الثقافي / السياسي خلال الثورات دلالات مهمة حول قيم حضارية كامنة وأصيلة ورشيدة في شعوب هذه الأمة: كانت ثورات سلمية تراحمية، تضم جميع المختلفين دينيًّا أو مذهبيًّا أو أيديولوجيًّا أو اجتماعيًّا ضدَّ الاستبداد والظلم والفساد والفقر، كانت ثورات ضد "نظم الداخل أولا السياسية والاقتصادية وأذرعها الإعلامية والدينية، قبل أن تستهدف الصهيوني والإمبريالي الخارجي، كانت تجمع أجيالًا عدَّة شاهدة على الماضي أو الحاضر وتنظر نحو المستقبل.. أفرزت هذه الثورات مفردات دولة العدالة، ودولة القانون، ودولة المراقبة والمحاسبة، ودولة المواطنة والديمقراطية، والدولة المدنية والدولة العادلة ودولة الحكم الرشيد..."[١٥].

كانت ثوراتٍ بدون رأس جامعة تقود وتهيمن، وبدون أياد قوية تخلع جذور النظم الفاسدة. ولذا سرعان ما بدأت علامات الارتداد تظهر خلال "المراحل الانتقالية" من جانب القوى المضادَّة للثورة، بل ومن قبل بعض قوى الثورة ذاتها. ولم تكن الاختلافات السياسية عارية من الأردية الدينية الثقافية الضالَّة.

(٢) ولقد استطاعت قوى الثورة المضادة أن توظف هذه الأبعاد الدينية الثقافية في تجليات ضالَّة أجهضت الثورات بأنماط متنوعة من وطن إلى وطن:

فمن ناحية مصر على سبيل المثال: تم تحفيز ثم إشعال الاستقطاب السياسي والأيديولوجي، وخاصة الإسلامي العلماني، في وقت مبكر. وما صاحب ذلك

من جدالات حول منظومات مفاهيم متقاتلة وليست متقابلة: الأقلية / الأغلبية، المدنية / الإسلامية، المرجعية المحافظة / الثورية التقدُّمية، الشريعة / الشرعية، المواطنة / أهل الذمة، السلام / الجهاد.

"تحرك هذا الاستقطاب إلى كافة المناطق المفترض استقرارها فأقلقها بل قلبها رأسًا على عقب: هوية الدولة المصرية، وثقافة المجتمع المصري، والنظام العام ومصادر قواعده، والقيم والآداب والأخلاق العامة، وأصول المجالات الحياتية من الدين والسياسة والاجتماع والفن.. بينما تحديات الحياة اليومية والتحديات الاستراتيجية التي تواجه الوطن بعيدةً عن هذا السِّجال أو مجرورة وراءه بغير استجابات فاعلة وحقيقية. لقد مَنَحَ هذا الوضعُ الفرصةَ كاملةً لقوى الثورة المضادَّة وفلول المنظومة الساقطة أن تجدِّد خلاياها وتمارس أدوارَها في تقويض روح الثورة وتشويهها وتنفير جماهير الشعب منها. بل يمكن القول إن هذه الحالة هي التي ساعدت المجلس الأعلى للقوات المسلحة على التحوُّل مبكِّرًا من دور الحارس والراعي المؤقَّت للثورة إلى طور اللاعب فالمتلاعب فالمضاد للثورة...

وإذا كان يمكن إرجاع هذه الحالة إلى جذور تاريخية وذاكرة مشحونة بين التيارين الإسلامي والعلماني وعلى خلفيات ومستويات متعدِّدة، فإن المنظور الحضاري يضع يده على تَجَلٍّ مهمٍّ من تجليات هذا الصدْع النَّكد؛ متمثِّلا فيما ورثناه عن الغرب وكرَّسته النظم السابقة من مفهوم لـ"السياسة" و"السياسي" في قلبه يقع الصراع على السلطة، والبقاء للأقوى، والتنافس الصفري. مع هذا المفهوم للسياسة تتعرَّض الجماعة الوطنية المصرية للتداعي والانحلال، وتتعطَّل أحلام التقدُّم ومشروعات التنمية والنهوض، وتشهد الديمقراطية أسوأ تطبيقاتِها، ويجدُ الخارجُ منافذَه إلى الداخل مشرعة الأبواب...

وخلال المرحلة الانتقالية التي شهدت تحرُّك الثورة المضادَّة، انجدلت أيضًا الأبعاد الدينية والثقافية بنظائرها السياسية والعسكرية على صعيد مجالات متنوعة: مفاهيم الديمقراطية التوافقية - التشاركية أم ديمقراطية الأغلبية - الدستور بين التأويل والتعديل والاستبدال - مغالطات وحجج وعلل الخطاب العلماني المعارض للأغلبية البرلمانية والرئاسة - العنف والعنف المضاد - الأدوار الجديدة لشباب الثورة بين الإسلاميين والعسكر - تحديات الأمن القومي في سيناء وعلى صعيد الاقتصاد - دور الإعلام والمؤسسات الدينية في الثورة المضادة..

ساحات متعدِّدة تصارعت على صعيدها المفاهيم وتمَّ العبث بها سياسيًّا وإعلاميًّا في خطابات النخب العلمانية المضادَّة للنُّخب الإسلامية... حيث غلب على الساحة المصرية والتونسية والليبية حالة إعلامية وثقافية موجَّهة ومدعومة سياسيًّا وإقليميًّا تتعمَّد تشويه الإسلاميِّين ثمَّ التحريض على إقصائهم واستئصالهم، بانقلاب عسكري أو امتثال فصائل ثورية مع النظم"[١٦].

وعلى صعيد أوطان الثورات الأخرى في تونس وسوريا وليبيا واليمن، ثم لبنان والسودان، وظَّفت قوى الثورات المضادة ثنائيات نكدة أخرى: قبلية - طائفية - مذهبية، وشدَّت أطرافَ كلِّ وطن إلى "متدخِّل خارجي" لاستقواء قوى على القوى الأخرى في الوطن حتى وصل الأمر إلى اندلاع حروب أهلية. حيث اضطرَّت بعض قوى الثورات (ما عدا في مصر وتونس) إلى استخدام القوة المسلَّحة ضدَّ النُّظم أو ضد بعضها البعض.

وبدلًا من بناء الجماعات الوطنية وإدارة

الاختلافات السياسية والمجتمعية سلميًّا، وبدلًا من مكافحة الفساد وزيادة فعالية القوى المجتمعية الوطنية وتخطيط استراتيجيات تنمية ونهوض حضاري، وبدلًا من استثمار الخارج الموالي وتحصين الداخل من مؤامرات أعداء الخارج؛ بدلًا من ذلك كله "عادت النظم القديمة في أردية جديدة أكثر قسوة وظلمًا وفسادًا وتفكيكًا وإفقارًا للمجتمعات، وتمَّ تشويه الثورات بصفة عامة، وتحميلها مسؤولية عدم الاستقرار وضياع الأمن الاقليمي والتكلفة الاقتصادية الباهظة على كاهل المجتمعات، وتهديد الإرهاب لأمن الدول ووجودها وتهديد قوى التطرُّف الديني لهُوية وأمن المجتمعات... إلخ.

وفي المقابل كان الاستبداد الداخلي ما بعد إجهاض الثورات، يزداد تحالفًا ومشاركة مع أعداء الخارج، وازداد اختراق المجتمعات بالأدوات التدخُّلية العولميَّة في كافَّة المجالات، التي تقوم على تطبيقها ورعايتها نظم داخلية لم تَعُدْ تعتذر عن الاتهامات الخارجية أو تبررها. ولذا لم يعد "الغرب" يشعر بالحاجة إلى الدبلوماسية العامة والشعبية لتغيير العقول والقلوب في أوطاننا أو إلى حوارات الأديان والثقافات التي يمارس خلالها تحويل الغلبة السياسية إلى دينية وثقافية فلقد كان القلب العربي منهكًا في اقتتاله الداخلي والبيني.

(٣) فهل انتهت المقاومة الحضارية في الأمة مع إجهاض ثورات القلب العربي؟

بالطبع لا، ولكن ظلَّت تنمو وتتراكم التحديات الدينية-الثقافية وتداعياتها السلبية على المجتمعات؛ ومن ثمَّ على الحالة الحضارية العامَّة للدول الإسلامية. فكانت الأزمات الاقتصادية العالمية والإقليمية تُلقي بوطْأتها أيضًا على المجتمعات في ظلِّ فشل جهود ما يسمَّى الإصلاح الاقتصادي.

وكان لعامين من طوفان الأقصى دلالات مزدوجة بالنسبة للتفاعل بين الديني الثقافي وبين السياسي داخليًّا وخارجيًّا.

الجانب الأول من الدلالات إيجابي، يبيّن كيف أن الأبعاد الدينية الثقافية المجتمعية الرشيدة تمثل مكونًا رئيسيًّا وأساسيًّا من المقاومة الحضارية الصامدة لأهل غزة وفصائلها العسكرية، ونواتها الصلدة "الإسلام"؛ منه وإليه.

وهذا النمط من المقاومة إسلاميةِ الصبغة والروح والقلب والعقل، حرَّك العالم الحر دعمًا ومساندة سواء لدوافع إنسانية أو دوافع سياسية تدين "الكيان الصهيوني" عقيدة وسياسة وحربًا. وكان لهذه الحالة عبر عامين من الطوفان دلالات فكرية وعلمية أيضًا، تفترض إعادة التفكير وإعادة التخيُّل في العديد من المفاهيم، وخاصة مفهوم "السياسي" والعسكري بصفة عامة، ليضمَّ معاني القيم والأخلاق والإنسانية والنُّصرة والإجارة واحترام العهود من ناحية، وليُعيد التفكير في مفاهيم الحرب والنصر والهزيمة والردع من ناحية ثانية، وليُعيد تعريف عناصر القوة والقدرة والمقاومة لتصبح حضارية شاملة وليس عسكرية فحسْب من ناحية ثالثة، وأخيرًا لإعادة تخيُّل العلاقة بين الإسلام والسياسة: حركات وشعوبًا ومجتمعات وليس دولا وحسْب.

هذا كله يعني أنسنة السياسات الواقعية العالمية والداخلية القائمة التي تقع شعوبنا ضحيةً لها. وهذه الأنسنة سبيلٌ للتغيير العالمي المنشود ليصبح العالم أكثر حرية وعدالة ومساواة[١٧].

الجانب الثاني من الدلالات سلبي: وهو يتَّصل بحالة الخذلان وعدم النصرة، واللامبالاة، أو التأويلات المضادة لطوفان الأقصى وآثاره المدمِّرة

على غزة. وتتعدَّد مؤشِّرات وتجلِّيات هذه الحالة السلبية النَّكِدة من جانب الشعوب ومن النظم على حَدٍّ سواء.

وإذا كان هناك من الحسابات السياسية والاقتصادية الضيقة التي يمكن أن تفسِّر هذه الحالة على المستوى الرسمي، فإن تداعيات هذه الحسابات (المتَّصلة بالحفاظ على النظم وأمنها من عدوان الكيان الصهيوني وشريكه الغربي) كانت أكثر قسوة على "الشعوب" من حيث أثر الإفقار وأثر التخويف والقمع وأثر التلاعب بالوعي وبالعقول والقلوب بواسطة أدوات الاستبداد والفساد وأدوات الرأسمالية المتوحِّشة. وجميعها عوامل مادِّية أعملَتْ أظافرَها في المجتمعات في غياب وتشويه نمط راشد للتعليم والتربية والدعوة والإعلام والفنون، وفق منظومة إيمانية حضارية إسلامية، ووفق منظومة قيم الشريعة ومقاصدها، ووفق السنن الإلهية وأحكام الشريعة، وكل ذلك انطلاقًا من العقيدة.

إن هذه المجالات في نمطها الراشد الذي جسَّده الطوفان هي التي تبني الإنسان، وتعبِّئ قوى الشعوب للبناء والمقاومة والعمران وللقيام ضد المحتل وضد الاستبداد والفساد على حدٍّ سواء. ولذا تعرَّضت -وما زالت تتعرَّض- هذه المجالات المجتمعية الثقافية للتشويه والاستبدال وفق منظومات قيم مضادة تُعَلْمِنُ الإسلام وتشوِّه أو تنزع ثوابتَه. ولقد كانت مشاهدُ غزة المقاومة منذ ٢٠٠٧ وحتى الآن ومشاهد العدوان والحصار المستمر عليها، كاشفةً لحقيقة دوافع هذا العدوان ووحشيته. فإن المقاومة ليست هي المستهدفة وحدها، ولكن المستهدف هو تقديم رسالة لجميع الشعوب الإسلامية أن هذه هي تكلفة الصمود والمقاومة باسم الإسلام ضد المحتل الصهيوني وحلفائه. ومن هنا نفهم أيضًا لماذا الإصرار بقوة وباستمرار متزايد على توظيف كل أدوات العولمة المعاصرة، عن قُرب وعن بُعد، لتغيير دين وثقافة هذه الشعوب المسلمة، انطلاقًا من تغيير وتشويه واستبدال منظومات قيم التعليم والتربية والدعوة والخطاب الديني والإعلام وذاكرة التاريخ... إلخ من أعصاب الأمة، عبر عملية ممتدَّة دؤوبة غير منقطعة وفي إطار استخدامات للقوة العسكرية المفرطة داخل الأوطان لتفكيك أوصال كلٍّ منه؛ أي تجزيء المجزَّأ منذ قرن في القلب العربي من الأمة. وما زال الجواران التركي والإيراني يشهدان وصول الهجمة الصريحة إليهما من الداخل والخارج... وتزحف أيضًا الهجمة الحالية إلى جنوب الشرق الآسيوي المسلم الإندونيسي (مشهد الرئيس الإندونيسي في مؤتمر شرم الشيخ في ١٣ أكتوبر ٢٠٢٥ مثلا) والماليزي، كلٌّ بما يستيقم مع طبيعة تكويناته الداخلية الحضارية.

(٤)

إن مسار نصف قرن من التفاعل بين منظومة: الديني-الثقافي مع السياسي من ناحية، وبين آثار ذلك على منظومة الحالة الحضارية العامة للأمة من ناحية أخرى، يبيِّن لنا دروسًا وخبرات تؤسِّس للاستشراف حول المآلات في ظلِّ ما يتوافر من فرص ممكنة لتفعيل وترشيد هذا التفاعل على نحو ينعكس إصلاحًا راشدًا على الحالة الحضارية للأمة.

إن خبرات ودروس نصف قرن توضِّح لنا الآتي:

(١) الإسلام هو النواة الصلدة لثقافة الأمة، عقيدةً وأصولا ثابتة من القرآن والسنة، أما فقه الأمة والمتغيِّرات المحيطة به ما بين سياقات مادية وما فيه فتاوى واجتهادات، فيتغيَّر مع الزمان والمكان. ومن ثمَّ فمن طبائع الأمور أن الثقافة متغيِّرة وفق عمليات الأصل أن تكون طوعية سُننية، والواقع أنها تشهد التغيير قَسْرًا وكرهًا وعلى نحو مصطنع.

(٢) السياقات المحيطة بالفرد والأسرة (نواة

المجتمع)، وبالمجتمع (نواة الدولة)، السياقات الداخلية والخارجية، هي التي تفرز التحديات أو التهديدات للنواة الصلدة وتأثيراتها على الفرد والأسرة ابتداء. وبالمثل فإن الاستجابات أو المقاومات دفاعًا عن النواة الصلدة أو العكس ترتبط درجة فاعليتها بطبيعة هذه السياقات. ومن ثم فما ينال ثلاثية الديني الثقافي الحضاري من فعاليات راشدة أو تأثيرات ضالة هو مسؤولية جماعية يتحمَّل الداخلُ فيها بصفة عامة قدر الخارج من المسؤولية ضعفًا أو قوَّة، إلَّا أن بعض المراحل تشهدُ تأثيرًا أكبر للخارج وذلك في وقت الضعف الداخلي وتفكُّك المجتمع حيث تضعف قدرة المقاومة المجتمعية، والعكس صحيح.

(٣) التفاعل بين الديني-الثقافي وبين السياسي، والتأثير المتبادل بينهما، معطى دائم ومستمر، ولكن تأثير أحدهما على الآخر يتفوق من آن لآخر. وقد يكون السياق السياسي حاميًا وداعمًا للسياق المعنوي القيمي ونواته الصلدة، والعكس صحيح.

ولكن وفق الرؤية الحضارية الإسلامية، فإن المنطلق دائمًا -قوة أو ضعفًا- هو الديني الثقافي؛ وهو -في هذا- يكون محرِّكًا ودافعًا ويقدم أدوات، أو يكون غاية وهدفًا، وذلك وفقًا للسياق.

إن الحالة الحضارية لوضع أمتي في العالم عبر نصف القرن الماضي تبيّن كيف أضْحى الديني الثقافي أداةً في يد الخارج لتغيير الوعي، أداة للاختراق والنفوذ ثم السيطرة ثم الهيمنة، وذلك في إطار مساندة أدوات أخرى مادية هي سياسات الإفقار والمرض: من يشكِّل محتوى الدعوة ومن يشكل الإعلام؟ إن استبداد بعض الخطاب الديني وفساده لا يقل أثرًا عن نظيره الإعلامي العلماني، كما أن آثار الإفقار لا تقل خطورة عن أعباء الفساد السياسي والرأسمالية المتوحشة.

وتظهر هذه الأنماط من التأثير المتبادل بين المادي والقيمي وقت السلم والحرب التي تمرُّ بها الأوطان على حدٍّ سواء. والمثال الحي القائم على ذلك هو ورقة التكوينات الدينية والمذهبية والقومية والعرقية والأيديولوجية للمجتمعات التي يتمُّ توظيفُها في إشعال الاقتتال الأهلي في أوطاننا، سواء بأيدي داخلية أو خارجية.

(٤) إن الحالة الحضارية العامة "لأمتي في العالم" بعد تطور مراحل نصف القرن الفائت: من العولمة والنظام العالمي الجديد، إلى الإسلاموفوبيا والحرب العالمية على الإرهاب، إلى ما بعد العولمة وما بعد الإسلاموفوبيا وما بعد طوفان الأقصى، تبرز ملامح مهمة حالية لعل أهمها:

زيادة إفقار الداخل وتبديد موارده - نظم حكم شريكة ومتحالفة مع العدو الخارجي إنقاذًا لسلطتها التي فقدت الشرعية والمشروعية - كثافة و انتشار أدوات جديدة لتشكيل الوعي تفوق ما كان عند تدشين العولمة المعاصرة بعد نهاية الحرب الباردة - الفوضى والتجزئة والاحتراب الداخلي في الأوطان وليس مجرد الاستقرار الهش المستهدف سابقًا من الخارج تجاهها - لم يعد المسلمون "الأشرار الإرهابيون المسلَّحون" هم المستهدفين فحسْب، ولكن "الإسلام" نفسه في قلوب وعقول المسلمين صار مستهدفا من أجل اقتلاع جذور مشروعات مقاومة مقبِلة - اشتداد وطْأة الهجوم على "الحركات الإسلامية السياسية السلمية" واتهامها بالإرهاب أيضًا.. فبعد أن كان "الغرب" والأنظمة العلمانية يرفضون الاعتراف بالعلاقة بين الدين والسياسة فهمَّشوا الدين واستبعدوه، وبعد أن قاموا على توظيفه كأداة، فهم اليوم يستدعونه لكي يُتَّهم الإسلام -جملة وتفصيلا- بالإرهاب.

بعبارة موجزة جامعة؛ تحوَّلت التحديات إلى تهديدات ومخاطر مباشرة للأمن الحضاري للمجتمعات الإسلامية. وأمام تجلياتها المباشرة وغير المباشرة لم تتوقَّف الاستجابات ثم المقاومات الحضارية لعواقبها. وهي -في مجالات الدعوة - التعليم - التربية - الآداب والإعلام- تمثِّل رؤوس حربة تضرب في الصميم آمال الشعوب في الحرية والعدالة الاجتماعية. فلقد استباحت الحرب على الإسلام والمسلمين روح الديمقراطية، ونهبت الثروات، وأماتت النصرة عبر الحدود، وأشعلت حروب الطوائف والمذاهب والقوميات داخل كل وطن، وتنامت علنًا وتوطدت الروابط بين "العدو الرئيسي" المتمثل في التحالف الصهيوني الرأسمالي الغربي، وبين نظم عربية وإسلامية.

ومن ثم، فإن السياقات المادية الداخلية والخارجية تضغط بثقلها على الأمة... ولذا وجب دَقُّ نو اقيس الخطر بقوَّة ومع تكرار وتذكرة حَيَّةٍ. فالمقاومة الحضارية لم ولن تتوقف.

والحمد لله

القاهرة

يناير ٢٠٢٦

الهوامش:

(١) د. نادية محمود مصطفى، د. سيف الدين عبد الفتاح، المقدمة، في: مجموعة من الباحثين، أمتي في العالم (العدد الأول): الأمة والعولمة، (القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية، ١٩٩٩)، ص١٤.

(٢) د. سيف الدين عبد الفتاح، أمتي في العالم-أمتي والعالِم الأستاذ الدكتور/ حامد ربيع: عالِم حمل هم الأمة في عقله، في: المرجع السابق، ص ٣٥ - ٣٨.

(٣) سمية عبد المحسن، شيماء بهاء الدين، مقدمة، في: مجموعة من الباحثين، أمتي في العالم (العدد العاشر): الحالة الثقافية للعالم الإسلامي، (القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية، ومكتبة الشروق الدولية، ٢٠١١).

(٤) د. نادية محمود مصطفى ود. سيف الدين عبد الفتاح، المقدمة، في: مجموعة من الباحثين، أمتي في العالم (العدد السادس)، (القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية، ٢٠٠٥).

(٥) د. نادية محمود مصطفى، تحديات العولمة والأبعاد الثقافية الحضارية والقيمية (رؤية إسلامية)، في: مجموعة باحثين، مستقبل الإسلام، (دمشق: دار الفكر العربي، ٢٠٠٤).

(٦) المستشار طارق البشري، الإصلاح والتجدد في أمتي صناعة توحيدية محلية وحضارية، في: أمتي في العالم (العدد السابع): الإصلاح في الأمة بين الداخل والخارج، (القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية، ٢٠٠٦)، ص ٧.

(٧) المرجع السابق.

(٨) طارق البشري، في المسألة الإسلامية المعاصرة: ماهية المعاصرة، (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٥).

(٩) انظر: مجموعة من الباحثين، أمتي في العالم (العدد الأول): الأمة والعولمة، مرجع سابق.

(١٠) نادية محمود مصطفى، إشكاليات الاقتراب من مفهوم حوار الحضارات من أدبيات عربية، في: مجموعة من الباحثين، أمتي في العالم (العدد الخامس)، (القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية، ٢٠٠٣).

(١١) انظر:

- نادية محمود مصطفى وسيف الدين عبد الفتاح، مقدمة المرجع السابق.

- نادية محمود مصطفى وسيف الدين عبد الفتاح، مقدمة، في: مجموعة من الباحثين، أمتي في العالم (العدد السادس)، مرجع سابق.

١٢ د. نادية محمود مصطفى، أولى حروب القرن الواحد والعشرين: رؤية أولية، مجلة السياسة الدولية، ٢٠٠٣.

(١٣) انظر:

- نادية محمود مصطفى وسيف الدين عبد الفتاح، مقدمة، في: مجموعة من الباحثين، أمتي في العالم (العدد الخامس)، مرجع سابق.

- د. نادية مصطفى، د. إبراهيم البيومي، د.باكينام الشرقاوي، مقدمة: أهداف المؤتمر وفكرته الأساسية، في: د. نادية مصطفى، د.إبراهيم البيومي، د.باكينام الشرقاوي (تحرير)، مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي: خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن (بالتعاون بين: جامعة القاهرة مركز الدراسات الحضارية وحوار الثقافات، ومجلة حراء)، (القاهرة: دار النيل للطباعة والنشر، ٢٠١١).

(١٤) انظر على سبيل المثال:

- د. نادية محمود مصطفى، د. محمد شوقي عبد العال (تنسيق علمي وإشراف)، الإعلان العالمي لحقوق الإنسان: حقوق الإنسان بين النظرية والتطبيق، القاهرة: دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية بالتعاون مع مركز الدراسات الحضارية وحوار الثقافات ومركز الحضارة للدراسات السياسية ومنتدى القانون الدولي، ٢٠١١.

- د. سيف الدين عبد الفتاح (محرر)، التعليم العالي في مصر: خريطة الواقع واستشراف المستقبل، أعمال المؤتمر السنوي الثامن عشر الذي عقد في ١٤-١٧ فبراير ٢٠٠٥، جامعة القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية، ٢٠٠٦.

- د. نادية محمود مصطفى (محرر)، التربية المدنية، جامعة القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية، ٢٠٠٧.

- د. نادية محمود مصطفى، د. إبراهيم البيومي غانم (محرران)، حالة تجديد الخطاب الديني في مصر، جامعة القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٧.

- د. نادية محمود مصطفى، محمد بشير صفار (محرران)، الخصوصية الثقافية: نحو تفعيل التغيير السياسي والاجتماعي، جامعة القاهرة: برنامج حوار الحضارات بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ٢٠٠٨.

- نادية محمود مصطفى، وسام الضويني (تحرير)، حوار الأديان: مراجعة وتقويم، القاهرة: مركز الدراسات الحضارية وحوار الثقافات بالتعاون مع مؤسسة ميديا انترناشونال، ٢٠١٠.

- د. نادية محمود مصطفى (تحرير)، أوروبا وإدارة حوار الثقافات الأورومتوسطية: نحو تفعيل رؤية عربية، أعمال المؤتمر الذي نظمه برنامج حوار الحضارات في أبريل ٢٠٠٥، جامعة القاهرة: كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ٢٠٠٨.

- د. نادية مصطفى (تنسيق وإشراف علمي وتقديم)، أوروبا وإدارة حوار الثقافات الأورومتوسطية: نحو رؤية عربية لتفعيل الحوار ودعم المصالح، علياء وجدي (مراجعة وتحرير)، جامعة القاهرة: برنامج الدراسات الحضارية وحوار الثقافات بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ٢٠٠٧.

- أماني صالح، حالة المرأة في العالم الإسلامي، في: مجموعة من الباحثين، أمتي في العالم (العدد الثاني)، (القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية، ٢٠٠٠)، ص ص ٢١٩-٢٧٤.

(١٥) مدحت ماهر، شيماء بهاء الدين، ماجدة إبراهيم، مقدمة، في: مجموعة من الباحثين، أمتي في العالم (العدد الحادي عشر): الثورة المصرية والتغيير الحضاري والمجتمعي، (القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية - مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١٢).

(١٦) المرجع السابق.

(١٧) نادية محمود مصطفى، العدالة والديمقراطية: التغيير العالمي من منظور نقدي حضاري إسلامي، (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث، ٢٠١٥).

أولا

في الحالة الفكرية والمعرفية